قواعد الاستقرار الاجتماعي للمجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات

إعداد الباحث

عبد الرحمن السيد عبد الله عبد الفتاح

المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن

بكلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة

من ١٨٩٩ إلى ١٩٦٢

ملخص البحث

الحمد لله على آلائه التي لا تحصى، والصلاة والسلام على رسوله الكريم ﷺ، فهذا ملخص بحث تحت عنوان: "قواعد الاستقرار الاجتماعي للمجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات"

يشتمل البحث على:

مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وتتمة، وخاتمة، ثم فهرس المصادر، وفهرس الموضوعات:

أما المقدمة: فاحتوت على كلمة موجزة عن القرآن، وأسباب اختياري للبحث، وخطة البحث.

وأما التمهيد: فتحدثت في نبذة مختصرة عن توطئة بين يدي سورة الحجرات. بينت فيها زمان ومكان نزول السورة الكريمة، والوحدة الموضوعية لها، ذاكرا أثر معرفة ذلك في خدمة موضوع البحث.

وأما المباحث الخمسة: فكل مبحث يحوي أساسا من الأسس التي يقوم عليها استقرار المجتمع اجتماعيا من خلال تأمل سورة الحجرات، وهي كما يلي:

المبحث الأول: تحلي الفرد المسلم بالأدب مع الله ومع رسوله ﷺ.

المبحث الثاني: التثبت من الأخبار.

المبحث الثالث: الإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين.

المبحث الرابع: أدب المؤمن مع إخوانه.

المبحث الخامس: التعارف والتآلف بين الناس.

تتمة: ختام السورة.

وقد قسمت آيات السورة على هذه المباحث، ذاكرا في كل مبحث الصحيح من أسباب النزول لما لها من أثر كبير في فهم نصوص الوحي، ثم بينت الأثر العملي للآيات في استقرار المجتمع اجتماعيا.

وأما الخاتمة: فتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

Title :

Rules of social stability of the muslim community mentioned in surat Al-Hogorat

Dr : Abdelrahman Elsayed Abdullah Abdelfattah
Teacher in the Department of Interpretation and Quranic Sciences
Faculty of Fundamentals of Religion and Da'wa in Mansoura

Abstract

Praise be to Allah for His countless gifts, and prayers and peace be upon his noble messenger, may Allah bless him and grant him peace. This is a research summary titled. "Rules of social stability of the Muslim community mentioned in Surat Al-Hogorat"
The research contains:
Introduction, preface, five discussions, sequel, conclusion, then the sources' index and the subjects' index:
As for the introduction: It contains a brief talk about the Qur'an, my reasons for choosing the research and a research plan.
As for the preamble: I spoke in a brief summary about the introduction of Surah Al- Hogorat. I showed the time and place of the descent of Surah, and the unit of its objectivity, noting the impact of knowledge of this in the service of the subject of research.
As for the five research: each research contains one of the basics on which the social stability of society is based on through contemplation of Surah Al- Hogorat, which are as follows:
The first topic: The Muslim individual's politeness with God and with his Messenger (peace be upon him).

The second topic: confirmation of the news.
The third topic: Reform among the fighters of the believers.
The fourth topic: The believer's politeness with his brothers.
The fifth topic: Friendship and harmony among people.
Sequel: The conclusion of the surah.
I divided the verses of the Sura on this research, stating in every research the correct reasons for descent because of their great impact in understanding the texts of revelation, then showed the practical impact of the verses on social stability of the society.
As for the conclusion: It includes the most important conclusions and recommendations.
Key words :
Introduction, preface, five discussions, sequel, conclusion then the sources index and the subjects index
E-mail : abdoemara1983@azhar.edu.eg

المقدمة

الحمد لله على نعمه التي لا تحصى، وآلائه التي لا تزال تترى، والصلاة والسلام على من أرسله ربه رحمة للعالمين، وأنزل عليه الفرقان هدى ورحمة وبشرى للمسلمين.

أما بعد:

فالقرآن الكريم هو الكتاب الخاتم الذي تولىٰ الله عز وجل حفظه بنفسه, ولم يكله إلىٰ أحد من خلقه، قال جل وعلا: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١).

وقد ندب الله الأمة إلى فهمه, وتدبر آياته وكلماته، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (٢).

وأخبرنا سبحانه بأن كتابه ميسر للذكر والفهم والتدبر، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (٣).

وبيَّن سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ولهدايتهم لما هو أقوم في جميع شئونهم الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ

---

١) سورة الحجر: ٩.

٢) سورة النساء: ٨٢.

٣) سورة القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

٤) سورة الإسراء: ٩.

سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (١).

فقد أودع الله في كتابه من العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام والقصص والأمثال ما به سعادة الفرد المسلم في الدنيا والآخرة، وتوطيد دعائم المجتمع في كل مجالات الحياة.

ورجاءَ ثواب الله عز وجل، وخدمة لكتابه العزيز، وإفناءً للعمر في تعلم القرآن وتعليمه، ولأهمية المعيشة في مجتمع يسوده التآخي والمحبة والتراحم، بلا عداء ولا بغض ولا تناحر، لتستقيم الحياة بالتعاون والتناصح والتناصر بين أفراد المجتمع، وليسعد الناس بحياة طيبة صالحة تسودها السكينة والطمأنينة، هداني الله عز وجل إلى هذا البحث الذي سميته:

{قواعد الاستقرار الاجتماعي للمجتمع المسلم في ضوء سورة الحجرات}

ويشتمل البحث على:

مقدمة، وتمهيد، وخمسة مباحث، وخاتمة، ثم فهرس المصادر، وفهرس الموضوعات:

أما المقدمة: فاحتوت على كلمة موجزة عن القرآن، وأسباب اختياري للبحث، وخطة البحث.

وأما التمهيد: فتحدثت في نبذة مختصرة عن توطئة بين يدي سورة الحجرات.

وأما المباحث الخمسة: فكل مبحث يحوي أساسا من الأسس التي يقوم عليها استقرار المجتمع اجتماعيا من خلال تأمل سورة الحجرات، وهي كما يلي:

المبحث الأول: تحلي الفرد المسلم بالأدب مع الله ومع رسوله ﷺ.

المبحث الثاني: التثبت من الأخبار.

---

١) سورة المائدة: ١٥، ١٦.

المبحث الثالث: الإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين.

المبحث الرابع: أدب المؤمن مع إخوانه.

المبحث الخامس: التعارف والتآلف بين الناس.

تتمة: ختام السورة.

وأما الخاتمة: فتشتمل على أهم النتائج والتوصيات.

وما كان من توفيق فمن الله وحده، وما كان من خطأ فمن نفسي، فأسأل الله العفو والمغفرة، كما أسأله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل زادا لحسن الوقوف بين يديه، وعدة ليُمن الورود عليه، وأن يستعملني في خدمة كتابه العزيز بإخلاص وصدق، وأن يَمُنَّ علينا بحياة طيبة مباركة يسودها الحب والإخاء والأمن والأمان، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

التمهيد: توطئة بين يدي سورة الحجرات

أولا: زمان ومكان نزول السورة الكريمة

إن معرفة زمان ومكان نزول سور القرآن الكريم يعين على معرفة الفترة التاريخية التي نزلت فيها السورة، وبالربط بينها وبين الموضوع الذي تعالجه السورة يقف القارئ على عظمة التشريع الإسلامي في معالجته لأمراض المجتمعات، وخير شاهد لذلك ما أخرجه الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة –رضي الله عنها– في حديثها مع الرجل العراقي، وفيه تقول السيدة عائشة: "إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا، لَقَدْ نَزَلَ بِمَكَّةَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦]، وَمَا نَزَلَتْ سُورَةُ البَقَرَةِ وَالنِّسَاءِ إِلا وَأَنَا عِنْدَهُ"(١).

وسورة الحجرات سورة مدنية، نزلت في العام التاسع من هجرة رسول الله ﷺ، ويشهد لذلك ما جاء في سبب نزول الآيات الأولى منها من قدوم وفد بني تميم على النبي ﷺ، ومعلوم أن الوفود قدمت على رسول الله ﷺ في العام التاسع من هجرته ﷺ، قال الإمام الطاهر بن عاشور: (وَهِيَ السُّورَةُ الثَّامِنَةُ بَعْدَ الْمِائَةِ فِي تَرْتِيبِ نُزُولِ السُّوَرِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْمُجَادِلَةِ وَقَبْلَ سُورَةِ التَّحْرِيمِ، وَكَانَ نُزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ سَنَةَ تِسْعٍ).(٢)

---

١) "صحيح البخاري" كِتَابُ فَضَائِلِ القُرْآنِ– بَاب تَأْلِيفِ الْقُرْآنِ– ١٨٥/٦، حديث رقم ٤٩٩٣، ط/ طوق النجاة.

٢) "التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن محمد بن عاشور، ت: ١٣٩٣هـ، ٢١٣/٢٦، ط/ الدار التونسية.

والمتأمل في هذا الوقت من نزول السورة يلحظ أنها متأخرة النزول، نزلت بعد فتح مكة وغزوات النبي ﷺ، وفي أواخر العهد المدني، -وهي في ترتيب المصحف بعد سورة الفتح-، وفي العام التاسع أيضا أتت الوفود إلى رسول الله ﷺ لتتعلم منه شرائع وأحكام وآداب الإسلام ونظم الحياة، كوفد عبد القيس، ووفد نجران، ووفد الأشعريين، وأهل اليمن، وبني تميم، وكان النبي ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم، وبالربط بين هذا الوقت وما اشتملت عليه السورة من آداب وأخلاق، نعلم يقينا أن السورة الكريمة تضع القوانين والأسس للمحافظة على استقرار المجتمع وتماسكه، بل وبنائه، وتعالج كثيرا من الأخطاء التي تهدد بقاء المجتمعات، -وكأن الأمر لا يقف عند فتح البلاد-، بل لا بد من مجتمع قوي متماسك لا تهزه الريح العاتية، بل يزداد صلابة وقوة بآدابه وأخلاقه السامية، لذا نزلت سورة الحجرات واضعة الأسس لبناء واستقرار المجتمعات، وكيفية مواجهة أفرادها لما يهددهم من معاول هدم.

ثانيا: الوحدة الموضوعية للسورة

نستطيع من خلال التأمل في آيات السورة الكريمة أن نضع للسورة موضوعا تدور حوله ألا وهو: "إقامة مجتمع مسلم على مكارم الأخلاق والآداب"، يقول الإمام الرازي: (هَذِهِ السُّورَةُ فِيهَا إِرْشَادُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَهِيَ إِمَّا مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ مَعَ الرَّسُولِ ﷺ، أَوْ مَعَ غَيْرِهِمْ مِنْ أَبْنَاءِ الْجِنْسِ).[١]

وقال الإمام القرطبي: (السُّورَةُ فِي الأَمْرِ بِمَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَرِعَايَةِ الآدَابِ).[٢]

وقال الإمام البقاعي: (سورة الحجرات مقصودها الإرشاد إلى مكارم الأخلاق).[١]

---

١) "مفاتيح الغيب" لأبي عبد الله محمد بن عمر الرازي، ت: ٦٠٦هـ، ٢٨/٩٧، ط/ دار إحياء التراث العربي.

٢) "الجامع لأحكام القرآن" لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ت: ٦٧١هـ، ١٦/٣٠٠، ط/ دار الكتب المصرية، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش.

فالسورة الكريمة تضع معالم كاملة لمجتمع رفيع، متضمنة القواعد والأصول التي يقوم عليها هذا المجتمع، والتي تكفل قيامه أولاً، وصيانته أخيراً، مجتمع نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، سليم الصدر.

لذا سمى بعض المفسرين هذه السورة بـ"سورة الأخلاق".[٢]

ولا يخفى أن الأخلاق لها دور كبير في رقي الأمم أو تخلفها، بل لها عامل ضخم في بقاء الأمم أو فنائها، وليس بعجب أن تكون الغاية والهدف من بعثة النبي ﷺ إلى العالمين أن يتمم مكارم الأخلاق، كما قال ﷺ: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلاقِ"[٣]، فبالأخلاق الحميدة تبقى المجتمعات وتتقدم، والعكس بالعكس.

📖 وقد قسمت السورة إلى مباحث خمسة، كل مجموعة من آياتها ضمنتها مبحثا يشتمل على أساس من الأسس التي تحافظ على بقاء المجتمع واستقراره، وفي نفس الوقت يعالج آفة من الآفات التي تهدم المجتمع، وفيما يلي بيان للأثر العملي لهذه الآيات في استقرار المجتمع اجتماعيا. ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾[٤].

المبحث الأول: تحلي الفرد المسلم بالأدب مع الله ومع رسوله ﷺ

---

١) "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" لإبراهيم بن عمر البقاعي، ت: ٨٨٥هـ، ٣٤٩/١٨، ط/ دار الكتاب الإسلامي.

٢) ينظر: "التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" لوهبة الزحيلي، ٢١٢/٢٦، ط/ دار الفكر المعاصر. "صفوة التفاسير" لمحمد علي الصابوني، ٢٢١/٣، ط/ دار الصابوني.

٣) أخرجه الإمام البخاري في "الأدب المفرد" بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ- ص١٠٤، حديث رقم ٢٧٣، ط/ دار البشائر الإسلامية، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. وإسناده صحيح.

٤) سورة هود: جزء من الآية ٨٨.

إن الفرد الإنساني هو اللبنة الأولى في المجتمع، والنبتة السليمة في أرضه الخصبة، فبصلاحه وتأدبه بالآداب العالية، وتخلقه بالأخلاق الحميدة، يكون سببا وعاملا فعالا في بناء المجتمع وإصلاحه واستقراره، بل ويكون سببا في هداية الآخرين، وبفساده وسوء خلقه يكون معول هدم في بنيان المجتمع، وقد يكون سببا في نشر الفتن وإضلال الآخرين، فهذا غلام أصحاب الأخدود بإيمانه وصدقه كان سببا في إيمان الناس، وعلى عكسه قارون كان سببا في فتنة الناس، لذا بدأ النبي ﷺ ببناء الفرد المسلم وتربيته على العقيدة السليمة، وصقله بالعبادات والأخلاق العالية، فأنتج مجتمعا متماسكا متكاتفا قائدا للأمم، بعد أن كانوا عبادا للحجر والصنم.

وسورة الحجرات بدأت بدعوة الفرد المسلم إلى أعظم وأسمى أدب، وهو الأدب مع الله ورسوله ﷺ، ووضعت للمجتمع المسلم منهج التعامل مع الشرع، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [1].

الأثر العملي للآيات في استقرار المجتمع:

يحسن بي قبل الخوض في أثر الآيات في المحافظة على المجتمع أن أذكر سبب نزولها، فمعرفة سبب نزول الآية يعين على فهمها فهما سديدا، قَالَ الإمام ابن تيمية: (مَعْرِفَةُ سَبَبِ النُّزُولِ يُعِينُ عَلَى فَهْمِ الآيَةِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ بِالسَّبَبِ

١) سورة الحجرات: من الآية ١: ٥.

يُوَرِّثُ الْعِلْمَ بِالْمُسَبَّبِ)[١]، وسوف أقتصر على الصحيح من أسباب النزول، وهي كما يلي:

قال الإمام البخاري: حَدَّثَنَا الحَسَنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا حَجَّاجٌ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ، أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ أَخْبَرَهُمْ: أَنَّهُ قَدِمَ رَكْبٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمِّرِ القَعْقَاعَ بْنَ مَعْبَدٍ، وَقَالَ عُمَرُ: بَلْ أَمِّرِ الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَوْ إِلا خِلاَفِي، فَقَالَ عُمَرُ: مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ، فَتَمَارَيَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا، فَنَزَلَ فِي ذَلِكَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حَتَّى انْقَضَتْ الآيَةُ.[٢]

وقال أيضا: حَدَّثَنَا يَسَرَةُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ جَمِيلٍ اللَّخْمِيُّ، حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ عُمَرَ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، قَالَ: كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ، وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ – قَالَ نَافِعٌ لاَ أَحْفَظُ اسْمَهُ – فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ: مَا أَرَدْتَ إِلا خِلاَفِي، قَالَ: مَا أَرَدْتُ خِلاَفَكَ فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآيَةَ، قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: "فَمَا كَانَ عُمَرُ يُسْمِعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ حَتَّى يَسْتَفْهِمَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَلِكَ عَنْ أَبِيهِ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ".[٣]

---

١) "مجموع الفتاوى" لابن تيمية، ت: ٧٢٨هـ، ١٣/٣٣٩، ط/ مجمع الملك فهد، المدينة المنورة، تحقيق: عبد الرحمن قاسم.

٢) "صحيح البخاري" كِتَابُ التفسير – بَاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ – ٦/١٣٧، ١٣٨، رقم ٤٨٤٧.

٣) "صحيح البخاري" كِتَابُ التفسير – بَابُ ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآيَةَ – ٦/١٣٧، حديث رقم ٤٨٤٥.

وقال الإمام الطبري: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَبِي يَحْيَى الْمُقَدَّمِيُّ قَالَ: ثَنَا عَفَّانُ قَالَ: ثَنَا وهَيْبٌ قَالَ: ثَنَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ قَالَ: ثَنِي الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَنَادَاهُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ مَدْحِي زَيْنٌ، وَإِنَّ شَتْمِي شَيْنٌ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: "وَيْلَكَ ذَلِكَ اللَّهُ"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ ﴾ الآيَةَ.(١)

📖 المتأمل في الروايات السابقة يلحظ أخطاءً وقعت في مجتمع الصحابة الكرام ونزل الوحي ليعالجها، ففي الروايتين الأولى والثانية: سبق الخيران أبو بكر وعمر –رضي الله عنهما– وانفرد كل واحد منهما برأي –في التأمير على ركب بني تميم– قبل أن يقضي ويأذن رسول الله ﷺ، وكانت نهاية ذلك أن وقعا في الجدال والمخاصمة، وارتفعت أصواتهما بين يدي رسول الله ﷺ، فنهى الله المؤمنين عن الاستبداد برأي قبل أن يقضي الله ورسوله فيه، وعن رفع الصوت فوق صوت النبي الكريم ﷺ، وفي الرواية الثالثة: نادى بعض الأعراب الجفاة الغلاظ رسولَ الله ﷺ من وراء حجرات أزواجه، وكره النبي ﷺ هذه الجفوة وهذا الإزعاج، فوصفهم الله بأنهم لا يعقلون، وبين لهم أن الأولى من ذلك الصبر حتى يخرج النبي ﷺ إليهم، لذا فسوف أبين الأثر العملي لهذه الآيات في إصلاح المجتمع المسلم من خلال عنصرين:

أولا: خطورة تقديم الرأي على حكم الله وحكم رسوله ﷺ:

إن الذي يمعن النظر في المناسبة بين سورة الحجرات وسورة الفتح قبلها يدرك خطورة تقديم الرأي على حكم الله وحكم رسوله ﷺ على المجتمع المسلم، وقد

---

١) "تفسير الطبري" لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ت: ٣١٠هـ، ٣٤٦/٢١، ط/ دار هجر، تحقيق: عبد الله التركي. وأخرجه الإمام أحمد في "مسنده" مسند المكيين– حديث الأقرع بن حابس– ٣٦٩/٢٥، حديث رقم ١٥٩٩١، ط/ مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون. وإسناده صحيح.

تحدثت سورة الفتح عن صلح الحديبية وما جرى فيه من شروط جائرة على المسلمين ورضي بها النبي ﷺ ولكن بعض الصحابة كان ميلهم إلى دخول مكة وإن كلفهم ذلك حياتهم، حتى أن عمر ﷺ جادل رسول الله ﷺ وأبا بكر ﷺ في ذلك، بل إن الصحابة –رضوان الله عليهم– تأخروا عن تلبية أمر النبي ﷺ لهم بالنحر والحلق، ويدخل النبي ﷺ على أم سلمة رضي الله عنها مهموما يذكر لها ما لقي من الصحابة الكرام[١]، فتأتي سورة الحجرات في أول نداء لها على المؤمنين ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ﴾ حتى لا يقترح أحد من المسلمين على الله ورسوله ﷺ، ولا يتجاوز أحد أمر الله ورسوله ﷺ.

قال مجاهد: ﴿لَا تُقَدِّمُوا﴾: لا تَفْتَاتُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ عَلَى لِسَانِهِ.[٢]

والافتيات: افتعال من الفوت، وهو: السَّبْقُ إِلَى الشَّيْءِ دُونَ ائْتِمَارِ مَنْ يُؤْتَمَرُ، تَقُولُ: افْتَاتَ عَلَيْهِ بِأَمْرِ كَذَا: أَيْ فَاتَهُ بِهِ، وَفُلانٌ لا يُفْتَاتُ عَلَيْهِ أَيْ: لا يُعْمَلُ شَيْءٌ دُونَ أَمْرِهِ، ويُقَالُ: افْتاتَ بِأَمره أَي: مَضى عَلَيْهِ، وَلَمْ يَسْتَشِرْ أَحداً، وافْتَأَت فلانٌ بأَمره، بِالْهَمْزِ، إِذا اسْتَبَدَّ بِهِ.[٣]

📖 هذا السبق والانفراد من الخيرين –رضي الله عنهما– قبل الائتمار بأمر النبي ﷺ واستشارته، كانت نهايته كما قال عبد الله بن الزبير ﷺ: "فَتَمَارَيَا

---

١) ينظر تفصيل صلح الحديبية: "صحيح البخاري" كِتَابُ الشروط– بَابُ الشُّرُوطِ فِي الجِهَادِ وَالمُصَالَحَةِ مَعَ أَهْلِ الحَرْبِ وَكِتَابَةِ الشُّرُوطِ– ٣/١٩٣: ١٩٧، رقم ٢٧٣٢.

٢) "صحيح البخاري" كِتَابُ التفسير– سورة الحجرات– ٦/١٣٧.

٣) ينظر: "الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية" لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، ت: ٣٩٣هـ، باب التاء– فصل الفاء– مادة (فوت)، ١/٢٦٠، ط/ دار العلم للملايين، تحقيق: أحمد عطار. "لسان العرب" لأبي الفضل محمد بن مكرم بن منظور، ت: ٧١١هـ، حرف التاء، فصل الفاء، مادة (فوت)، ٢/٦٩، ط/ دار صادر.

حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا"، وأصل المراء فِي اللُّغَةِ: الجِدال، وأَن يَستخرج الرجلُ مِنْ مُناظره كَلامًا وَمَعَانِي الْخُصُومَةِ وَغَيْرِهَا، مِنْ مَرَيْتُ الشاةَ إِذا حَلَبْتَهَا وَاسْتَخْرَجْتَ لَبَنَهَا.(١)، والمراد به هنا: المجادلة والمخاصمة.(٢)

والفرق بين الجدال والمراء : أن المراء فيه مخاصمة في الحق بعد ظهوره، وليس كذلك الجدال، والمراء لا يكون إلا اعتراضا، بخلاف الجدال فإنه يكون ابتداء واعتراضا.(٣)

📖 ولا يخفى ما يُحْدثه المراء من تشقق وتصدع في المجتمع المسلم، لما يورثه من تنازع وتخاصم بين أفراد المجتمع، لذا حث النبي ﷺ الأمة على تركه قائلا: "أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ".(٤)

---

١) "تهذيب اللغة" لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، ت: ٣٧٠هـ، باب الراء والميم، ٢٠٤/١٥، ط/ دار إحياء التراث العربي.

٢) "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" لأبي محمد محمود بن أحمد العيني، ت: ٨٥٥هـ، ١٩/١٨، ط/ دار إحياء التراث.

٣) ينظر: "الفروق اللغوية" لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، ت: ٣٩٥هـ، ص١٥٩، ط/مؤسسة النشر الإسلامي. "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير" لأبي العباس أحمد بن محمد الفيومي، ت: ٧٧٠هـ، ٥٦٩/٢، ط/ المكتبة العلمية.

٤) أخرجه الإمام أبو داود في "سننه" كتاب الأدب- بَابٌ فِي حُسْنِ الْخُلُقِ- ١٧٨/٧، ١٧٩، حديث رقم ٤٨٠٠، ط/ دار الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. والإمام الرُّوياني في "مسنده" ٢٧٩/٢، حديث رقم ١٢٠٠، ط/ مؤسسة قرطبة، تحقيق: أيمن علي. والإمام الدولابي في "الكنى والأسماء" ١٠٧٥/٣، حديث رقم ١٨٨٧، ط/ دار ابن حزم، تحقيق: أبو قتيبة الفاريابي. والإمام الطبراني في "المعجم الكبير" باب الصاد- سُلَيْمَانُ بْنُ حَبِيبٍ الْمُحَارِبِيُّ قَاضِي عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ صُدَيِّ بْنِ عَجْلانَ- ٩٨/٨، حديث رقم ٧٤٨٨، ط/ مكتبة ابن تيمية، تحقيق: حمدي عبد المجيد. والإمام البيهقي في "السنن

📖 ولكل ذي لب أن يتصور مآل المجتمع إذا أطلق العنان للآراء أن تقطع في أمر ما قبل أن يحكم الله ورسوله ﷺ فيه، كم عدد الآراء التي ستُقترح؟، وكم حجم الاختلاف الذي سيحدث؟، وإلى أي مدى سيصل الجدال؟، قال الإمام ابن القيم: (وَكُلُّ مَنْ لَهُ مُسْكَةٌ مِنْ عَقْلٍ يَعْلَمُ أَنَّ فَسَادَ الْعَالَمِ وَخَرَابَه إنَّمَا نَشَأَ مِنْ تَقْدِيمِ الرَّأْيِ عَلَى الْوَحْيِ، وَالْهَوَى عَلَى الْعَقْلِ، وَمَا اسْتَحْكَمَ هَذَانِ الأصْلانِ الْفَاسِدَانِ فِي قَلْبٍ إلا اسْتَحْكَمَ هَلاكُهُ، وَفِي أُمَّةٍ إلا فَسَدَ أَمْرُهَا أَتَمَّ فَسَادٍ، فلا إلَهَ إلا اللَّهُ كَمْ نُفِيَ بِهَذِهِ الآرَاءِ مِنْ حَقٍّ، وَأُثْبِتَ بِهَا مِنْ بَاطِلٍ، وَأُمِيتَ بِهَا مِنْ هُدًى، وَأُحْيِيَ بِهَا مِنْ ضَلالَةٍ؟ وَكَمْ هُدِمَ بِهَا مِنْ مَعْقِلِ الإيمَانِ، وَعُمِّرَ بِهَا مِنْ دِينِ الشَّيْطَانِ؟).[1]

📖 ولعل الحكمة في مجيء هذا الأدب لأفراد الأمة في شخصي أبي بكر وعمر –رضي الله عنهما– هو تأهيلهما لقيادة المجتمع بعد رسول الله ﷺ، وكأن القائد لا بد أن يتحلى بأعظم الآداب وأسماها حتى يكون ناجحا آخذا بيد أفراد مجتمعه إلى بر الأمان والاستقرار، ثم إنه لا يخفى على أحد عِظَم قدرهما –رضي الله عنهما– فكأن في ذلك تلميحا أيضا إلى أن كل فرد من أفراد المجتمع –عَظُم شأنه أو قل– في أمس الحاجة إلى أن يتخلق بأسمى الآداب وأرفع الأخلاق، لما لها من أثر فعال في بناء المجتمع واستقراره.

الكبرى" كتاب الشهادات– بَابُ: الْمُزَاحُ لا تُرَدُّ بِهِ الشَّهَادَةُ مَا لَمْ يَخْرُجْ فِي الْمُزَاحِ إِلَى عَضَهِ النَّسَبِ، أَوْ عَضَهٍ بِحَدٍّ، أَوْ فَاحِشَةٍ– ١٠/٤٢٠، حديث رقم ٢١١٧٦، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: محمد عطا. والحديث إسناده حسن. قال ابن الأثير: "رَبَضِ الجنَّة" هُوَ بِفَتْحِ الْبَاءِ: مَا حَوْلها خَارِجًا عَنْهَا، تَشْبيها بالأَبْنِيَة الَّتِي تَكُونُ حَوْلَ المُدُن وَتَحْتَ القِلاَع. "النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير، حرف الراء– باب الراء مع الباء– ربض– ٢/١٨٥، ط/ المكتبة العلمية، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي.

١) "إعلام الموقعين عن رب العالمين" لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، ت: ٧٥١هـ، ١/٥٤، ٥٥، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم.

وهذه الآيات -كما هو معلوم- نزلت عام الوفود التي أتت لرسول الله ﷺ تتلقى منه أحكام وآداب الإسلام، وفي أواخر العهد المدني، ولعل في ذلك تلميحا إلى أن بداية بناء المجتمعات يكون بالآداب والأخلاق، وإشارة إلى أن العهد المدني ختم بالآداب والأخلاق لينطلق الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان بهذه الأخلاق والآداب لبناء عهود وأجيال أخرى، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على قيمة الأخلاق والآداب في بناء واستقرار المجتمعات.

ثانيا: خطورة عدم التزام الأدب في الحديث والتعامل مع النبي ﷺ:

📖 إن الآيات الكريمة تحمل في طياتها تعظيما لقدر النبي ﷺ فهو القائد المصلح والمعلم الرباني لهذه الأمة، فلا يُرفع صوت فوق صوته ولا يصاح به كما يصيح الأخ بأخيه، لأن مقامه رفيع ومنزلته عالية، قال الإمام الزمخشري: (ورود الآية على النمط الذي وردت عليه، فيه ما لا يخفى على الناظر من إكبار للنبي ﷺ وإجلال لمقامه، ومن ذلك: مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به السفه والجهل بسبب ما أقدموا عليه، ومنها: أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات تهوينا للخطب وتسلية له ﷺ).[١]

📖 والنداء على رسول الله ﷺ من وراء حجراته صدر من بعض الأعراب الجفاة، ولا شك أن الجفاء يُحْدث التنافرَ بين أفراد المجتمع، وتتقطع من خلاله أواصر المودة والمحبة والرحمة بين الناس، بل وربما تتفكك الأسر بسببه، لذا

---

١) "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، ٥/٥٦٤، ط/ مكتبة العبيكان، بالرياض، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض. بتصرف

حذر النبي ﷺ منه قائلا: "الْحَيَاءُ مِنَ الإيمَانِ، وَالإيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ"(١).

والجفاء: هو الغِلَظ في الطبع والعِشْرة، والخُرْق في المعاملة، وترك الرِّفق في الأمور. والبذاء: هو الفحش والقبح في المنطق، وإن كان الكلام صدقا.(٢)

📖 والآيات الكريمة تُعلِّمُنا أن يلتزم كل فرد من أفراد المجتمع الأدب في التعامل مع ورثة النبي ﷺ من العلماء الربانيين والقادة المصلحين، فإن العقول السليمة والآداب القويمة تقتضي مراعاة الاحترام والتوقير عند مخاطبة سائر الناس فكيف بأفضلهم وأشرفهم، والمجتمع الذي لا يُحترم فيه العلماء ولا القادة مجتمع مشتت مفرق مآله إلى الهلاك والضياع، لأن العلماء والقادة بالنسبة للمجتمع كالعقل الرشيد بالنسبة للإنسان وكالرأس بالنسبة للجسد، فهم اللذين

---

١) أخرجه الإمام الترمذي في "سننه" أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- بَابُ مَا جَاءَ فِي الحَيَاءِ- ٣٦٥/٤، حديث رقم ٢٠٠٩، ط/ مكتبة مصطفى الحلبي، تحقيق: أحمد شاكر. والإمام ابن ماجة في "سننه" كتاب الزهد- باب الحياء- ١٤٠٠/٢، حديث رقم ٤١٨٤، ط/ دار إحياء الكتب العربية، تحقيق: محمد عبد الباقي. والإمام أحمد في "مسنده" مسند المكثرين من الصحابة- مُسْنَدُ أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- ٣٠٥/١٦، حديث رقم ١٠٥١٢. والإمام ابن أبي شيبة في "مصنفه" كتاب الأدب -مَا ذُكِرَ فِي الْحَيَاءِ وَمَا جَاءَ فِيهِ- ٢١٣/٥، حديث رقم ٢٥٣٤٥، ط/ مكتبة الرشد، تحقيق: كمال الحوت. والإمام ابن حبان في "صحيحه" كتاب الرقائق- باب الحياء- ذِكْرُ الإِخْبَارِ عَمَّا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ مِنْ لُزُومِ الْحَيَاءِ عِنْدَ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ لَهُ ارْتِكَابَ مَا زُجِرَ عَنْهُ- ٣٧٢/٢، ٣٧٣، حديث رقم ٦٠٨، ط/ مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. والحديث إسناده صحيح.

٢) "عمدة القاري" للعيني، ٩٦/٢٣، ٣١٢/٢٠. "التوقيف على مهمات التعاريف" لزين الدين عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، ت: ١٠٣١هـ، ص١٢٨، ص٧٣. ط/ عالم الكتب.

يقودون المجتمع إلى بر الأمان والاستقرار، وهم السياج الحامي للمجتمع من الانحراف والانهيار.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: في الآيات الكريمة ما يكشف عن جانب عظيم من أخلاقيات الإسلام، وآدابه العالية، فيما يعرف اليوم بالدبلوماسية السياسية، التي تفرض على الناس مراسم من الأدب في حضرة الملوك، والرؤساء، والقادة، والزعماء، وأصحاب السيادة والسلطان، ولكن شتان بين أدب الإسلام، الذي ينبع من مشاعر صادقة، ويفيض من قلوب عامرة بالحب، خفّاقة بالولاء، وبين هذا الأدب التمثيلى المصطنع، الذي لا يتجاوز الكلمات التي ترددها الألسنة، والحركات التي تصطنعها الأجسام، ألا فلتخضع الرقاب، وتنخفض الجباه أمام هذا الأدب الإسلامي، ولتخرس الألسنة التي ترمي بالتهم في وجه هذا الدين الذي جمع الفضائل كلها، والذي يقود ركب الحضارة في أعلى مستوياتها، وأروع مظاهرها، إنه ليس دين بداوة جافية غليظة، كما يتخرص المتخرصون، بل إنه دين المدنية الخالصة من شوائب الزيف، وطلاء الخداع.[١]

تتمة:

📖 في هذه الآيات تربية من الله عز وجل للفرد المسلم أن يتحلى بالأدب معه ومع نبيه ﷺ، -وورثته ﷺ- وبدأت بالنداء المحبب إلى النفوس والذي يلهب المشاعر ويوقظ الضمائر ويبعث العبد إلى الانقياد والتنفيذ، وذلك لما تشتمل عليه الآيات من بناء للفرد والمجتمع، وتربية للفرد على مكارم الأخلاق ومعالي الآداب، قال الإمام الآلوسي: (تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في حيزه أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم وفرط

---

١) "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ت: ١٣٩٠هـ، ٤٣٧/١٣، ٤٣٨، ط/ دار الفكر العربي. بتصرف يسير

اهتمامهم بتلقيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع للمحافظة عليه ورادع عن الإخلال به)[١]، ولا شك أن تربية الفرد على الأخلاق الحميدة والآداب الرفيعة لها أثر كبير في استقامة المجتمع وتماسكه، فالأخلاق الفاضلة والآداب السامية هي أساس قوة ونهضة المجتمعات، فإذا انحطت الأخلاق في مجتمع ما فإن ذلك شاهد سقوطه وانهياره، وقد عرض القرآن الكريم قصة قوم لوط ﷺ مثالا واضحا للانحطاط الأخلاقي وأثره في انهيار المجتمع.

والأدب مع الله ورسوله ﷺ هو جماع الآداب كلها، فكل الآداب تصدر عن ذلك، لأن الفرد المسلم إذا كان قد نُهِيَ أن يَتَعَجَّل بأمر دون الله ورسوله ﷺ، فهل سيقدم هواه ورأيه على أمر في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، وهل سيتعدى على محارم الله وحدوده التي حدها، وإذا كان قد نُهِيَ أن يرفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ، فهل سيخالف أمره، ولا يتخلق بأخلاقه ﷺ، فالإسلام يريد أن يبني مجتمعا له أدب مع الله ورسوله ﷺ، فلا يسبق العبد المؤمن إلهه في أمر أو نهي، ولا يقترح عليه في قضاء أو حكم، ولا يتجاوز ما يأمر به وما ينهى عنه، ولا يجعل لنفسه اختيارا أو رأياً مع خالقه، تقوى منه وأدبا، وله أدب خاص في خطاب رسول الله ﷺ وتوقيره وتعظيمه، وله أدب مع ورثة النبي ﷺ،ولا شك أن المجتمع لا تقوى وتثبت دعائمه إلا بتلك الآداب، لذا نجد قوما كبني إسرائيل لما أساءوا الأدب مع الله ومع أنبيائهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

المبحث الثاني: التثبت من الأخبار

---

١) "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لشهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، ت: ١٢٧٠هـ، ١٣/٢٨٤، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: علي عطية.

لا يخلو يوم في حياتنا إلا ونسمع أخبارا عديدة تتناقلها الألسنة ليل نهار، وقد تكون هذه الأخبار سببا في إثارة الفتن والعداوة بين أفراد المجتمع، بل بين أفراد العالم، خاصة مع كثرة وسائل التواصل الاجتماعي، ووسائل الإعلام، فخبر في جنوب الأرض أو في شمالها يصل للعالم بأسره، هذا مع حب الإنسان للاستطلاع، والشغف بنقل الأخبار، بل السؤال عن كل ما هو جديد، كل ذلك يجعلنا في أمس الحاجة إلى التعرف على منهج الإسلام في تلقي ونقل هذه الأخبار حتى تستقر المجتمعات ولا ينتشر فيها الكذب والأوهام على أنه صدق وحقائق، وآيات سورة الحجرات أصل من أصول الإسلام الحنيف في تلقي تلك الأخبار.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضْلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾.[1]

قال الإمام الطبراني: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو الْخَلالُ الْمَكِّيُّ، ثنا يَعْقُوبُ بْنُ حُمَيْدٍ، ثنا عِيسَى بْنُ الْحَضْرَمِيِّ بْنِ كُلْثُومِ بْنِ عَلْقَمَةَ بْنِ نَاجِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ الْخُزَاعِيُّ، عَنْ جَدِّهِ كُلْثُومٍ، عَنْ أَبِيهِ عَلْقَمَةَ قَالَ: بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ يُصَدِّقُ أَمْوَالَنَا فَسَارَ حَتَّى إِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنَّا، وَذَلِكَ بَعْدَ وَقْعَةِ الْمُرَيْسِيعِ رَجَعَ فَرَكِبْنَا فِي أَثَرِهِ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَتَيْتُ قَوْمًا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ أَخَذُوا اللِّبَاسَ وَمَنَعُوا الصَّدَقَةَ، فَلَمْ يُغَيِّرْ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ ﴾ الآيَةُ، وَأَتَى الْمُصْطَلِقُونَ النَّبِيَّ ﷺ إِثْرَ الْوَلِيدِ بِطَائِفَةٍ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ يَسُوقُونَهَا، وَنَفَقَاتٍ يَحْمِلُونَهَا فَذَكَرُوا ذَلِكَ لَهُ، وَأَنَّهُمْ خَرَجُوا

---

١) سورة الحجرات: من الآية ٦: ٨.

يَطْلُبُونَ الْوَلِيدَ بِصَدَقَاتِهِمْ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَدُفِعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانَ مَعَهُمْ وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَنَا مَخْرَجُ رَسُولِكَ فَسُرِرْنَا بِذَلِكَ وَقُلْنَا: نَتَلَقَّاهُ، فَبَلَغَنَا رَجْعَتُهُ، فَخِفْنَا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ سَخَطِهِ عَلَيْنَا وَعَرَضُوا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَشْتَرُوا مِنْهُ مَا بَقِيَ فَقَبِلَ مِنْهُمُ الْفَرَائِضَ وَقَالَ: "ارْجِعُوا بِنَفَقَاتِكُمْ لا نَبِيعُ شَيْئًا مِنَ الصَّدَقَاتِ حَتَّى نَقْبِضَهُ"، فَرَجَعُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ يَقْبِضُ بَقِيَّةَ صَدَقَاتِهِمْ.[1]

الأثر العملي للآيات في استقرار المجتمع:

إن المتأمل في واقع الناس اليوم، والكم الهائل من الأخبار التي يتناقلونها، وما بين هذه الأخبار من تباين وتناقض، يتضح له بجلاء مدى أهمية امتثال أمر الله عز وجل في هذه الآيات بالتثبت والتبين من الأخبار لاسيما إن عرف ناقلوها بعدم العدالة، فالتثبت من الأخبار والتحقق منها وتمحيصها أصل كبير في تلقيها، ولا يخفى على أحد ما تحدثه الأخبار الكاذبة من زعزعة في المجتمعات، وإثارة للقلاقل والفتن بين أفرادها، وإيقاد للعداوة والبغضاء بل والتقاتل بينهم، وكل ذلك سبب في انهيار المجتمعات لا استقرارها، لذا أنكر الله عز وجل على المنافقين وضعفاء النفوس الذين ينقلون الأخبار قبل التحقق منها، قائلا: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ

---

١) "المعجم الكبير" للطبراني، من اسمه علقمة- عَلْقَمَةُ بْنُ نَاجِيَةَ بْنِ الْحَارِثِ أَبُو كُلْثُومٍ الْخُزَاعِيُّ ثُمَّ الْمُصْطَلَقِيُّ، ٦/١٨، ٧، رقم ٤. وأخرجه الإمام ابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" عَلْقَمَةُ بْنُ نَاجِيَةَ الْخُزَاعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ٣٠٩/٤، ٣١٠، رقم ٢٣٣٥. قال الإمام الهيثمي في "مجمع الزوائد" (١١٠/٧): رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادَيْنِ، فِي أَحَدِهِمَا يَعْقُوبُ بْنُ حُمَيْدِ بْنِ كَاسِبٍ وَثَّقَهُ ابْنُ حِبَّانَ وَضَعَّفَهُ الْجُمْهُورُ، وَبَقِيَّةُ رِجَالِهِ ثِقَاتٌ. قلت: الحديث إسناده حسن، في إسناده يعقوب بن حميد، قال عنه البخاري في "الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد" (٨٢٣/٢، رقم ١٣٩٢): لم نر إلا خيرا وَهُوَ فِي الأَصْل صَدُوق.

وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [١]، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (هذا تأديب من الله لعباده، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور ويعرفون المصالح وضدها، فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطا للمؤمنين وسرورا لهم وتحرزا من أعدائهم فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ففي الآية دليل على النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة فيُقْدِم عليه الإنسان، أم لا فيحجم عنه).[٢]

وقال الدكتور/ وهبة الزحيلي: (تناقل الأخبار آفة المجتمعات، فقد يكون بعضها إشاعة، أو كذبا، وقد يكون هناك كثير من المبالغة في الخبر وتضخيمه، وغالبا ما يكون نقل الخبر بحاجة ماسة إلى الدقة في النقل، وضبط اللفظ، وفهم المراد، وتأويل المسموع، لذا كان لا بد من الكتابة أو التدوين أو التسجيل ليكون الخبر صحيحا أو مطابقا للواقع، وقد يكون الخبر كله ملفقا أو موضوعا لدوافع سياسية أو مناصرة اتجاه معين أو لبذر بذور الفرقة، وتأجيج نار الخلاف بين الناس، الأقارب أو الأباعد، لذا أوجب القرآن التثبت من

---

١) سورة النساء: ٨٣.

٢) "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، ت: ١٣٧٦هـ، ص١٩٠، مؤسسة الرسالة. بتصرف

الأخبار، تحقيقا للمصلحة العامة أو الخاصة، ومنعا من إيقاع الفتنة، وزرع الفرقة).[١]

ولقد بين الله عز وجل العلة والسبب في الأمر بالتثبت من الأخبار لاسيما خبر الفاسق، وبين النتيجة الحتمية لتصديق خبره، قائلا: ﴿ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ ، فربما يعتدي إنسان على آخر بريء بسبب خبر سمعه وصدقه من غير تثبت، ثم تكون عاقبته الندم والغم الشديد لما فعله، وإن انتشر ذلك في مجتمع فلا أمان له ولا استقرار.

قال الإمام محمد سيد طنطاوي: (فالآية الكريمة ترشد المؤمنين في كل زمان ومكان إلى كيفية استقبال الأخبار استقبالا سليما، وإلى كيفية التصرف معها تصرفا حكيما، فتأمرهم بضرورة التثبت من صحة مصدرها، حتى لا يصاب قوم بما يؤذيهم بسبب تصديق الفاسق في خبره، بدون تأكد أو تحقق من صحة ما قاله، وبهذا التحقق من صحة الأخبار، يعيش المجتمع الإسلامي في أمان واطمئنان، وفي بعد عن الندم والتحسر على ما صدر منه من أحكام).[٢]

فالمنهج الذي رسمه لنا الإسلام هو تلقي الأخبار بالعقل لا باللسان، وبالقلب لا بالفاه، لذا زجر الله زجرا شديدا من يتلقى الخبر بلسانه وفيه وينقله من غير تبين وتمحيص، لإحداثه بنقل هذا الخبر الفتنة بين المسلمين، وزعزعة المجتمع المسلم، فقال تعالى ناعيا على من تلقوا حادثة الإفك بألسنتهم: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [٣]، نعم، هو عند الله عظيم، لما فيه من إثارة الفتن، وانتهاك

---

١) "التفسير الوسيط" لوهبة بن مصطفى الزحيلي، ٢٤٧١/٣، ط/ دار الفكر.

٢) "التفسير الوسيط للقرآن الكريم" لمحمد سيد طنطاوي، ت: ١٤٣١هـ، ٣٠٥/١٣، ط/ دار نهضة مصر.

٣) سورة النور: ١٥.

للحرمات، وطعن في الأعراض، واتهام البرآء، ولا يؤدي ذلك إلا إلى إضعاف المجتمع وزعزعته.

📖 وفي آيات سورة الحجرات أيضا تلميح إلى أن الأصل في تلقي الأخبار هو حسن الظن بالمسلمين –إلى أن يثبت ويتبين العكس– لا سيما إذا كانوا معروفين بالصلاح ولم يصدر عنهم ما يشينهم، وقد صرح الله بذلك في حادثة الإفك قائلا: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾[١]، قال الإمام أبو زهرة: (فالتعبير (بِأنفُسِهِمْ) يشير إلى الأخوة الإسلامية، الرابطة التي تجعل إشاعة السوء عن بعضهم إشاعة عن جميعهم، وتوهين للرابطة التي تربطهم، وإشاعة السوء تنبعث من تفكك في بعض الجماعة، وتنتهي إلى تفككها كلها، وتذهب بالذمار الخلقي فيها).[٢]

📖 ومما ينبغي أن يوضع في عين الاعتبار ضرورة التثبت والتبين فيما تتناقله وسائل التواصل الاجتماعي ووسائل الإعلام المختلفة من أخبار وأنباء، وفيما يثار في المجتمع من إشاعات، فلا تتناقلها الألسنة إلا بعد تمحيصها والتحقق منها، لا سيما في عصر تسمع فيه الخبر ونقيضه في يوم واحد، بل في ساعة واحدة، من وسائل إعلام متعددة المشارب والأهواء، لكل منها هوى تتبعه أو فكر توجهه، فكم للإشاعات والأخبار المسموعة والمرئية من تفكيك لأواصر المجتمع، ومن بث للقلاقل والآلام في نفوس أهله، وخير شاهد لذلك حادثة الإفك التي هزت بيت النبوة بل والمجتمع المسلم كله، والتي كلفت أطهر

---

١) سورة النور: ١٢.

٢) "زهرة التفاسير" لأبي زهرة محمد بن أحمد، ت: ١٣٩٤هـ، ٥١٥٨/١٠، ط/ دار الفكر العربي.

القلوب والنفوس على وجه الأرض آلاما وقلاقل لا تطاق[١]، إلى أن نزلت فيها آيات بينات تتلى إلى قيام الساعة، فيجب على أفراد المجتمع أن لا ينقل واحد منهم خبرا إلا بعد أن يتثبت ويتبين، وكما قال النبي ﷺ: كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ.[٢]

١) ينظر الحديث بطوله في "صحيح البخاري" كتاب الشهادات- بَاب تَعْدِيلِ النِّسَاءِ بَعْضِهِنَّ بَعْضًا- ٣/١٧٣: ١٧٦، حديث رقم ٢٦٦١. "صحيح مسلم" كتاب التوبة- بَابٌ فِي حَدِيثِ الإِفْكِ وَقَبُولِ تَوْبَةِ الْقَاذِفِ- ٤/٢١٢٩: ٢١٣٦، حديث رقم ٢٧٧٠، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

٢) "صحيح مسلم" مقدمة الإمام مسلم- بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْحَدِيثِ بِكُلِّ مَا سَمِعَ- ١/١٠، حديث رقم ٥.

المبحث الثالث: الإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين

لا يخفى على عاقل أن الكذب صفة مذمومة وخصلة دنيئة، توعد الله صاحبها بالعذاب الأليم، ومع ذلك فلم يعتبر الإسلام الرجل الذي يكذب ليصلح بين الناس من الكذابين، لما في الإصلاح بين الناس من تماسك واستقرار لأركان المجتمع، قال النبي ﷺ: "لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ خَيْرًا وَيَنْمِي خَيْرًا"، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إلا فِي ثَلاثٍ: الْحَرْبُ، وَالإِصْلاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا.[١]، والمتأمل في الثلاث يجد أن الإسلام لم يعدهم كذبا من أجل المصلحة العليا، وهي المحافظة على المجتمع متماسكا متعانقا متكاتفا مستقرا.

بل لقد أخبر الله في كتابه أنه لا خير في كثير مما يتناجى الناس به إلا من أمر أخاه بصدقه، أو بالإكثار من أعمال البر، أو قام بإصلاح بين الناس، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٢]، ومن ثم جاءت آيات سورة الحجرات تأمر المؤمنين بالمسارعة في الإصلاح بين إخوانهم المتقاتلين.

---

١) "صحيح البخاري" كتاب الصلح- بَاب لَيْسَ الْكَاذِبُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ- ١٨٣/٣، حديث رقم ٢٦٩٢. "صحيح مسلم" كتاب البر والصلة والآداب- بَابُ تَحْرِيمِ الْكَذِبِ وَبَيَانِ مَا يُبَاحُ مِنْهُ- ٢٠١١/٤، حديث رقم ٢٦٠٥.

٢) سورة النساء: ١١٤.

قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١).

قال الإمام البخاري: حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، حَدَّثَنَا مُعْتَمِرٌ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، أَنَّ أَنَسًا ﷺ، قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: لَوْ أَتَيْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيٍّ، فَانْطَلَقَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَرَكِبَ حِمَارًا، فَانْطَلَقَ المُسْلِمُونَ يَمْشُونَ مَعَهُ وَهِيَ أَرْضٌ سَبِخَةٌ(٢)، فَلَمَّا أَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: إِلَيْكَ عَنِّي، وَاللَّهِ لَقَدْ آذَانِي نَتْنُ حِمَارِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ مِنْهُمْ: وَاللَّهِ لَحِمَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَطْيَبُ رِيحًا مِنْكَ، فَغَضِبَ لِعَبْدِ اللَّهِ رَجُلٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَشَتَمَهُ، فَغَضِبَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَصْحَابُهُ، فَكَانَ بَيْنَهُمَا ضَرْبٌ بِالْجَرِيدِ وَالأَيْدِي وَالنِّعَالِ، فَبَلَغَنَا أَنَّهَا أُنْزِلَتْ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾. (٣)

الأثر العملي للآيات في استقرار المجتمع:

تقع الصراعات أو المنازعات الداخلية المسلحة عادة في كل زمان ومكان، بسبب بعض الشبهات أو التأويلات، من فئات تستبد بها الأهواء أحيانا، أو الجنوح أحيانا، أو مناصرة لحق يرونه، وظلم يبغون رفعه، وتتكبد الأمة خسارة كبيرة في القضاء على الثورات المسلحة والفتن الداخلية، ولو احتكموا إلى

---

١) سورة الحجرات: ٩، ١٠.

٢) هي الأرضُ الَّتِي تعْلُوها المُلُوحة وَلَا تكادُ تُنْبِت إِلَّا بعضَ الشجَر. ينظر: "النهاية" لابن الأثير، حرف السين- باب السين مع الباء- سَبخ- ٣٣٣/٢. "لسان العرب" لابن منظور، باب الخاء المعجمة، فصل السين، مادة (سبخ)، ٢٤/٣.

٣) "صحيح البخاري" كتاب الصلح- بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِصْلاَحِ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا- ١٨٣/٣، حديث رقم ٢٦٩١. "صحيح مسلم" كتاب الجهاد والسير- بَابٌ فِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى اللهِ، وَصَبْرِهِ عَلَى أَذَى الْمُنَافِقِينَ- ١٤٢٤/٣، حديث رقم ١٧٩٩.

القرآن بمعانيه الدقيقة، لما نشب بينهم شيء من الخلاف، وهذه الآيات تحمل قاعدة عامة محكمة، تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك والتفرق، تحت النزوات والاندفاعات، تأتي تعقيباً على الأمر بالتثبت وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة.[١]

والمتمعن في قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ ، يجد أن الآية جاءت بأسلوب الشرط الذي يفيد الترابط التام بين الشرط وجوابه، وجاء الجواب مقترنا بالفاء التي توجب وقوع الثاني بعد الأول من غير فصل، فهي "تضم الشيء إلى الشيء متسقا بعضه في إثر بعض"[٢]، ثم إن الجواب أتى بصيغة الأمر الذي يقتضي الوجوب، كل ذلك يدل على المسارعة إلى الإصلاح بمجرد وقوع النزاع والقتال، لمَا في المسارعة إلى الإصلاح من توحيد الصف المسلم قبل اتساع دائرة الشقاق والنزاع فيه، حفاظا على استقرار المجتمع وتماسكه، وإلا فالمصير المتحتم للنزاع هو الفشل، كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [٣].

📖 ثم إن التعبير بـ "إنْ" مشعر بأن الأصل التواد والتراحم والتلاحم في المجتمع المسلم، فإن طرأ على هذا الأصل تنازع وتقاتل يجب على الفور الإصلاح بين المتقاتلين، قال الإمام الطنطاوي: (والتعبير بـ "إن" للإشعار بأنه لا يصح أن يقع قتال بين المؤمنين، فإن وقع على سبيل الندرة، فعلى المسلمين أن يعملوا بكل وسيلة على إزالته،-ثم قال- وقد أخذ العلماء من

---

١) ينظر: "التفسير الوسيط" للزحيلي، ٢٤٧٣/٣.

٢) ينظر: "الكتاب" لسيبويه، ت: ١٨٠هـ، ٢١٧/٤، ط/ مكتبة الخانجي، تحقيق: عبد السلام هارون.

٣) سورة الأنفال: ٤٦.

هاتين الآيتين جملة من الأحكام منها: أن الأصل في العلاقة بين المؤمنين أن تقوم على التواصل والتراحم، لا على التنازع والتخاصم، وأنه إذا حدث نزاع بين طائفتين من المؤمنين، فعلى بقية المؤمنين أن يقوموا بواجب الإصلاح بينهما حتى يرجعا إلى حكم الله تعالى).[١]

والتعبير أيضا بالفعل الماضي ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ولم يقل يقتتلوا، لأن صيغة المضارع تنبئ عن التجدد والحدوث والاستمرار، فيفهم منها أن طائفتين من المؤمنين إن تماديا في القتال فأصلحوا، وليس المراد ذلك بل المراد المسارعة إلى الإصلاح بمجرد وقوع الاقتتال حتى يسهل التوفيق بينهما، ويظل المجتمع مستقرا.[٢]، فهذا رسول الله ﷺ أبطأ عن الصلاة ذات يوم لأنه كان يصلح بين أناس من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، والحديث أخرجه الإمام البخاري بسنده إلى سهل بن سعد قال: أَنَّ أُنَاسًا مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ كَانَ بَيْنَهُمْ شَيْءٌ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ يُصْلِحُ بَيْنَهُمْ، فَحَضَرَتِ الصَّلاَةُ، وَلَمْ يَأْتِ النَّبِيُّ ﷺ، فَجَاءَ بِلاَلٌ، فَأَذَّنَ بِلاَلٌ بِالصَّلاَةِ، وَلَمْ يَأْتِ النَّبِيُّ ﷺ، فَجَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقَالَ: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ حُبِسَ وَقَدْ حَضَرَتِ الصَّلاَةُ، فَهَلْ لَكَ أَنْ تَؤُمَّ النَّاسَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنْ شِئْتَ، فَأَقَامَ الصَّلاَةَ فَتَقَدَّمَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ جَاءَ النَّبِيُّ ﷺ، يَمْشِي فِي الصُّفُوفِ حَتَّى قَامَ فِي الصَّفِّ الأَوَّلِ، فَأَخَذَ النَّاسُ بِالتَّصْفِيحِ حَتَّى أَكْثَرُوا، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ لاَ يَكَادُ يَلْتَفِتُ فِي الصَّلاَةِ، فَالْتَفَتَ فَإِذَا هُوَ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَرَاءَهُ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ بِيَدِهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يُصَلِّيَ كَمَا هُوَ،.. .[٣]

---

١) "التفسير الوسيط" لمحمد سيد طنطاوي، ٣٠٨/١٣، ٣١٠.

٢) "مفاتيح الغيب" للرازي، ١٠٥/٢٨. بتصرف شديد

٣) "صحيح البخاري" كتاب الصلح- بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِصْلاَحِ بَيْنَ النَّاسِ إِذَا تَفَاسَدُوا، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَخُرُوجِ الإِمَامِ إِلَى الْمَوَاضِعِ لِيُصْلِحَ

وفي الحديث دلالة بينة على أنه ينبغي على الإمام أن يسعى بنفسه للإصلاح بين المتنازعين، فهو مسئول عن أمن وأمان واستقرار مصره الذي ائتمن عليه.

📖 وحرصا على استقرار المجتمع وتعاضده أمر الله عز وجل بقتال الفئة الباغية التي لم تصغ للصلح المؤدي إلى التواد والتراحم والتلاحم، وقتالُهَا ينتهي برجوعها إلى حكم الله وأمره وقبولها الصلح الذي أمر الله بإقامته، وهذا يدل على ضرورة الأخذ على يد الباغي حتى ينقاد للحق والصلح، لأن ترك عضو باغ فاسد في المجتمع المسلم يسلب من المجتمع أمنه وأمانه واطمئنانه واستقراره، وأمر الله بالصلح أيضا بعد رجوعها إلى أمر الله لمحو كل آثار الضغينة والبغضاء، قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: (بعد أن ينتصر المؤمنون للطائفة المبغي عليها، وبعد أن تنزل الطائفة المعتدية على حكم الله ورسوله، عندئذ لا يترك الأمر هكذا، باستسلام الفئة الباغية تحت حكم السيف، فإن ذلك من شأنه أن يترك آثارا من الضغينة والبغضاء، لا ينحسم معها شر أبدا، وإن خمد إلى حين، ومن هنا كانت الدعوة إلى المصالحة بين الفريقين، وجمعهما على الإخاء والمودة، ونزع ما في النفوس من سخائم، وغسل ما نجم عن هذا القتال من آثار، ومداواة ما كان منها من جراح).[1]

📖 والسر في تقييد الأمر بالصلح بين الطائفتين -بعد بغي إحداهما على الأخرى- بالعدل، لأنَّه مظِنةُ الحيفِ لوقوعِه بعدَ المقاتلةِ، ولوجود آثار لهذا البغي بعد اندفاعه من ضمان المتلفات وغير ذلك، فينبغي الصلح بالعدل التام

بَيْنَ النَّاسِ بِأَصْحَابِهِ- ١٨٢/٣، ١٨٣، حديث رقم ٢٦٩٠. "صحيح مسلم" كتاب الصلاة- بَابُ تَقْدِيمِ الْجَمَاعَةِ مَنْ يُصَلِّي بِهِمْ إِذَا تَأَخَّرَ الإِمَامُ وَلَمْ يَخَافُوا مَفْسَدَةً بِالتَّقْدِيمِ- ٣١٦/١، حديث رقم ٤٢١.

١) "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ٤٤٦/١٣.

لئلا تثور الفتنة بينهما مرة أخرى،[١] وهذا الأمر فيه ما فيه من الحرص على نزع النزاع بل نزع الضغائن بين الطائفتين حتى لا ينزغ الشيطان بينهما بعد الصلح، وفي ذلك استقرار للمجتمع وحفظه من انتشار فتنة التقاتل فيه بين حين وآخر.

📖 ومما يزيد ويعضد الترابط بين أفراد المجتمع المسلم، بل بين المؤمنين في العالم، هذه القاعدة التي حدها الله في كتابه، -بعد أن أمر بالصلح بين المتقاتلين من المؤمنين-، والتي تجعل المؤمنين في شتى بقاع الأرض كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص، لا تستطيع قوة أن تنال منهم، ألا وهي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ، بأسلوب الحصر الذي يقتضي أنه لا يكون بين المؤمنين إلا الأخوة، فهذا عقد عقده الله بين أهل الإيمان، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان، في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولقد أمر الله ورسوله، بالقيام بحقوق المؤمنين، بعضهم لبعض، وبما به يحصل التآلف والتوادد، والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك: إذا وقع الاقتتال بينهم الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم).[٢]

---

١) ينظر: "مفاتيح الغيب" للرازي، ١٠٦/٢٨. "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" لأبي السعود العمادي، ت: ٩٨٢هـ، ١٢٠/٨، ط/ دار إحياء التراث العربي. "تفسير المراغي" لأحمد بن مصطفى المراغي، ت: ١٣٧١هـ، ١٢٩/٢٦، ط/ مكتبة مصطفى الحلبي.

٢) "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي، ص٨٠٠، ٨٠١. بتصرف

وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أيضا: لفت للأنظار إلى أن الأخوة الإيمانية لا تتغير ولا تنقطع بتلك العوارض التي تعرض للمؤمنين في حياتهم من خلاف أو نزاع، بل الأخوة باقية دائمة تربط المجتمع بعضه ببعض إلى قيام الساعة، قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ هو تعقيب على الآية السابقة، وعلى ما دعت إليه المؤمنين من حسم الخلاف الذي يقع بين جماعاتهم، ثم هو إلفات إلى أن الأخوّة القائمة بين المؤمنين لا تتغير صفتها، ولا تنقطع آثارها بتلك العوارض التي تعرض لهم في حياتهم، فإنما هي موجات من ريح عابرة، لا تلبث أن تفتر، ثم يعود إلى البحر سكونه، وصفاؤه، وجلاله، ومن جهة أخرى، فإن الفئة الباغية لا يزال لها مكانها في المؤمنين، ولا تزال لها أخوّتها فيهم، وإذن فلا يجار عليهم لأنهم جاروا، ولا يعتدى عليهم، لأنهم اعتدوا، وإنما يقبل منهم قبولهم لما قضى به المؤمنون عليهم، ثم إن لهم بعد هذا حقهم كاملا لا ينقص منه شيء، فالمعتدون والمعتدى عليهم إخوان للمؤمنين جميعا).[١]

ولا شك أن استشعار المؤمنين بهذه الأخوة الدينية يزيد من ألفتهم وتماسكهم وترابطهم، فكما بين الأخوة في النسب حب وتراحم كذلك ينبغي أن يكون بين أهل الإيمان، وهذا مما يزيد أمن وأمان واستقرار المجتمع، قال الإمام الطنطاوي: (إنما المؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، فهم يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب، وكما أن أخوة النسب داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر في جلب الخير، ودفع الشر،

---

١) "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ١٣/٤٤٧.

فكذلك الأخوة في الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح، ومتى تصالحتم واتقيتم الله تعالى كنتم أهلا لرحمته ومثوبته).[١]

فمما يترتب على هذه الأخوة أن يسود الحب والسلام والتعاون بين المؤمنين في شتى بقاع الأرض، وأن يكون الخلاف هو الاستثناء الذي ينبغي أن يرد إلى الأصل فور وقوعه، بل يستباح لإتمام هذا الأصل قتال المؤمنين الآخرين للبغاة من إخوانهم ليردوهم عن بغيهم وعدوانهم.

📖 ولهذا حرص النبي ﷺ أشد الحرص على تأصيل هذه الرابطة وهذا العقد بين المؤمنين جميعا، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، أذكر منها: قول النبي ﷺ: "إِنَّ المُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا"، وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ.[٢]

وقوله ﷺ: "تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى".[٣]

فكما أن التلاحم والتماسك والترابط واضح في البنيان والجسد الواحد، كذلك ينبغي أن يكون المجتمع المسلم بل العالم المسلم، وهذا أدعى إلى قوته وثباته واستقراره.

📖 وتتميما للإرشاد واهتماما بالصلح بين المتخاصمين لما فيه من توطيد دعائم المجتمع، أمر الله مرة أخرى بالإصلاح قائلا: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ، قال الإمام الرازي: (ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

---

١) "التفسير الوسيط" لمحمد سيد طنطاوي، ٣٠٩/١٣. بتصرف يسير

٢) "صحيح البخاري" كتاب الصلاة- بَابُ تَشْبِيكِ الأَصَابِعِ فِي المَسْجِدِ وَغَيْرِهِ- ١٠٣/١، حديث رقم ٤٨١. "صحيح مسلم" كتاب البر والصلة والآداب- بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ- ١٩٩٩/٤، حديث رقم ٢٥٨٥.

٣) "صحيح البخاري" كتاب الأدب- بَابُ رَحْمَةِ النَّاسِ وَالبَهَائِمِ- ١٠/٨، حديث رقم ٦٠١١. "صحيح مسلم" كتاب البر والصلة والآداب- بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاضُدِهِمْ- ١٩٩٩/٤، حديث رقم ٢٥٨٦.

تَتْمِيمًا لِلإِرْشَادِ وَذَلِكَ لأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ ﴾ ، كَانَ لِظَانٍّ أَنْ يَظُنَّ أَوْ لِمُتَوَهِّمٍ أَنْ يَتَوَهَّمَ أَنَّ ذَلِكَ عِنْدَ اخْتِلافِ قَوْمٍ، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الاقْتِتَالُ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَلا تَعُمُّ الْمَفْسَدَةُ فَلا يُؤْمَرُ بِالإِصْلاحِ، وَكَذَلِكَ الأَمْرُ بِالإِصْلاحِ هُنَاكَ عِنْدَ الاقْتِتَالِ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ دُونَ الاقْتِتَالِ كَالتَّشَاتُمِ وَالتَّسَافُهِ فَلا يَجِبُ الإِصْلاحُ، فَقَالَ: ﴿ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الْفِتْنَةُ عَامَّةً، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الأَمْرُ عَظِيمًا كَالْقِتَالِ، بَلْ لَوْ كَانَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَدْنَى اخْتِلافٍ فَاسْعَوْا فِي الإِصْلاحِ)[1]، فيالـه من تشريع عظيم حكيم يحفظ الألفة والمودة بين كل مسلمين، ويحافظ على بناء مجتمع طيب الأخلاق طاهر القلب نظيف النفس خال من التنازع والشحناء بين أفراده.

---

١) "مفاتيح الغيب" للرازي، ١٠٦/٢٨.

المبحث الرابع: أدب المؤمن مع أخيه

الأخوة الإيمانية أعظم وأقوى رابطة على وجه الأرض، بل هي التي تبقي في الدنيا والآخرة، فكم من صلات تقطعت ولم تثبت لأنها كانت قائمة على المصالح والمنافع، أما أخوة الدين فإنها باقية دائمة متينة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [١]، ولكن هذه الأخوة ليست شعارات تردد، ولا كلمات رنانة تقال، بل هي محكومة بأخلاق عالية، وآداب سامية بين أهل الإيمان بعضهم مع بعض، توطد دعائم مجتمع قوي متماسك، وآيات سورة الحجرات توضح لنا جانبا مهما من الآداب التي ينبغي أن تسود في المجتمع المسلم.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢].

قال الإمام أبو داود: حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ عَامِرٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو جَبِيرَةَ بْنُ الضَّحَّاكِ، قَالَ: فِينَا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ، فِي بَنِي سَلَمَةَ، ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾ ، قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَيْسَ مِنَّا رَجُلٌ إِلا وَلَهُ اسْمَانِ أَوْ ثَلاثَةٌ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ:

---

١) سورة الزخرف: ٦٧.

٢) سورة الحجرات: ١١، ١٢.

"يَا فُلانُ"، فَيَقُولُونَ: مَهْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ يَغْضَبُ مِنْ هَذَا الاسْمِ، فَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.(١)

الأثر العملي للآيات في استقرار المجتمع:

تحمل الآيات الكريمة منهجا تربويا –تقتضيه الأخوة الإيمانية– لإقامة مجتمع مسلم خال من الضغائن والأحقاد بين أفراده، مجتمع سليم الصدر، نقي الفؤاد، عف اللسان، نظيف السريرة، لا يحمل أحد أفراده في صدره غلا ولا حقدا ولا حسدا على أخيه المسلم، فجاء النهي في هذه الآيات عن السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، لأن هذه الآفات – التي قد يُغْفل عنها– من أعظم ما يثير الضغائن والأحقاد، ويفجر الخصومات بين المؤمنين، فيختل اطمئنان المجتمع المسلم وأمانه.

قال الإمام الطاهر بن عاشور: (لَمَّا اقْتَضَتِ الأُخُوَّةُ أَنْ تُحْسَنَ الْمُعَامَلَةُ بَيْنَ الأَخَوَيْنِ، جاءَتْ هَذِهِ الآيَاتُ مُنَبِّهَةً عَلَى أُمُورٍ مِنْ حُسْنِ الْمُعَامَلَةِ قَدْ تَقَعُ

---

١) أخرجه الإمام أبو داود في "سننه" كتاب الأدب– بَابٌ فِي الأَلْقَابِ– ٣١٧/٧، حديث رقم ٤٩٦٢، والإمام الترمذي في "سننه" أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ– بَابٌ وَمِنْ سُورَةِ الحُجُرَاتِ– ٣٨٨/٥، حديث رقم ٣٢٦٨، والإمام النسائي في "السنن الكبرى" كتاب التفسير– قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ – ٢٨٦/١٠، حديث رقم ١١٤٥٢، ط/ مؤسسة الرسالة، تحقيق: حسن شلبي. والإمام ابن ماجة في "سننه" كتاب الأدب– بَابُ الأَلْقَابِ – ١٢٣١/٢، حديث رقم ٣٧٤١. والإمام أحمد في "مسنده" أول مسند الكوفيين– حَدِيثُ أَبِي جَبِيرَةَ بْنِ الضَّحَّاكِ – ٢٢١/٣٠، حديث رقم ١٨٢٨٨. والإمام البخاري في "الأدب المفرد" بَابُ الْغِيَّابِ– ص١٢١، حديث رقم ٣٣٠. والإمام أبو يعلى في "مسنده" حَدِيثُ الضَّحَّاكِ بْنِ أَبِي جَبِيرَةَ– ٢٥٢/١٢، ٢٥٣، حديث رقم ٦٨٥٣، ط/ دار المأمون، تحقيق: حسين أسد. والإمام الطبري في "تفسيره" ٣٦٨/٢١. والحديث إسناده صحيح.

الْغَفْلَةُ عَنْ مُرَاعَاتِهَا لِكَثْرَةِ تَفَشِّيهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ لِهَذِهِ الْمُنَاسَبَةِ، وَهَذَا نِدَاءٌ رَابِعٌ أُرِيدَ بِمَا بَعْدَهُ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ بِوَاجِبٍ بَعْضِ الْمُجَامَلَةِ بَيْنَ أَفْرَادِهِمْ).[١]

📖 نهى الله عز وجل عن السخرية، وهي الاستهزاء والاحتقار والتهكم، يقال: سَخِرَ مِنْهُ وَبِهِ سَخْراً وسَخَراً ومَسْخَراً وسُخْراً، بِالضَّمِّ، وسُخْرَةً وسِخْرِيّاً وسُخْرِيّاً وسُخْرِيَّة: هَزِئَ بِهِ، ولذَعه بكلام تهكّميّ، واحتقره.[٢]

فلا يسخر غني من فقير، ولا صحيح من سقيم، ولا طائع من عاص، ولا من رزق بالولد ممن لم يرزق، ولا صاحب المنصب والجاه ممن عدم ذلك، ولا لغير ذلك، قال الإمام الطبري: (إن الله عمّ بنهيه المؤمنين عن أن يسخر بعضهم من بعض جميع معاني السخرية، فلا يحلّ لمؤمن أن يسخر من مؤمن لا لفقره، ولا لذنب ركبه، ولا لغير ذلك).[٣]

📖 والسخرية مرض خطير لها آثارها السلبية على استقرار المجتمع، لأنها تؤدي إلى تقطع الروابط الاجتماعية القائمة على المودة والتراحم، وتبذر بذور العداوة والبغضاء، وتورث الأضغان والأحقاد بين أفراد المجتمع، ومع كل هذا تولد الرغبة بالانتقام من الساخر، لأن فيها إهانة لكرامة الإنسان أو الجماعة المسخور منها، فيتولد عندهم روح الانتقام حتى يدفعوا الإهانة عن أنفسهم، لذا نهى الله المؤمنين بهذا النداء المحبب إلى قلوبهم والذي يستجيش مشاعرهم وأحاسيسهم لتلبية ندائه سبحانه، قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب:

---

١) "التحرير والتنوير" لابن عاشور، ٢٤٦/٢٦. بتصرف

٢) ينظر: "لسان العرب" لابن منظور، حرف الراء، فصل السين، مادة (سخر)، ٣٥٢/٤. "القاموس المحيط" لأبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ت: ٨١٧هـ، باب الراء، فصل السين، (سخر)، ص٤٠٥، ط/ مؤسسة الرسالة. "معجم اللغة العربية المعاصرة" لأحمد مختار عمر، ت: ١٤٢٤هـ، بمساعدة فريق عمل، س- ٢٤٦٨ س خ ر- ١٠٤٤/٢، ١٠٤٥، ط/ عالم الكتب.

٣) "تفسير الطبري" لابن جرير الطبري، ٣٦٦/٢١.

(إن من أفتك الآفات التي تغتال مشاعر الإخاء والمودة بين المجتمعات، استخفاف جماعة بجماعة، والنظر إليها نظرا ساخرا، فإن ذلك من شأنه أن يغري هؤلاء المستخفّين المستهزئين بمن استخفوا بهم، ونظروا إليهم باستصغار واستهزاء، ثم هو من جهة أخرى يحمل الجماعة المستخفّ بها المستصغر لشأنها على أن تدافع عن نفسها، وأن تردّ هذه السخرية وهذا الاستهزاء بالسخرية والاستهزاء ممن سخروا منهم وهزءوا بهم، وهذا أول قدح لشرارة الحرب، فإن الحرب أولها الكلام، كما يقولون).[١]

📖 وليس معنى التعبير بالقوم وبالنساء في الآية جواز سخرية واحد من واحد، وعدم ترتب ضرر في المجتمع على ذلك، كلا، ولكن العبارة جاءت بهذا السياق لغلبة وقوع السخرية في المجامع، فكم من متلذذ بها، وكم من متألم منها، فجعل ذلك بمنزلة تعدد الساخر والمسخور منه، ثم إن التنكير في القوم والنساء للتبعيض والتعميم، فيعم كل أحد يسخر من آخر.[٢]

فالسخرية سواء أكانت من فرد أم من جماعة مذمومة، لما تسببه من تشقق وتصدع في المجتمع المسلم وعداوة وفرقة بين المسلمين، لذا حذر النبي ﷺ منها أشد التحذير قائلا: "بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ"[٣].

---

١) "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ٤٤٨/١٣.

٢) ينظر: "غرائب القرآن ورغائب الفرقان" للحسن بن محمد النيسابوري، ت: ٨٥٠هـ، ١٦٥/٦، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: زكريا عميرات. "إرشاد العقل السليم" لأبي السعود، ١٢١/٨. "روح المعاني" للآلوسي، ٣٠٤/١٣.

٣) جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في "صحيحه" كتاب البر والصلة والآداب- بَابُ تَحْرِيمِ ظُلْمِ الْمُسْلِمِ، وَخَذْلِهِ، وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَالِهِ- ١٩٨٦/٤، حديث رقم ٢٥٦٤.

📖 ثم نهى الله عز وجل عن اللمز، وهو العيب والطعن في الأعراض، يقال: يُقَالُ لَمَزَ يَلْمِزُ لَمْزًا، وَرَجُلٌ لَمَّازٌ وَلُمَزَةٌ، أَيْ: عَيَّابٌ،[١] والمعنى: لا يعب بعضكم بعضا، ولا يطعن بعضكم على بعض.[٢]

📖 واللمز خصلة مذمومة، تثير البغضاء والكراهية في الصدور، لما فيها من طعن في عرض الملموز، وربما يرد اللمز باللمز، ويبحث عن عيب مَن لمزه، -ولا يخلو فرد من عيب- فيرد الملموزُ الطعن بالطعن، -خاصة إذا كان قد لُمِز بمحضر من إخوانه- فيزداد الشقاق والبغضاء بينهما، بل ربما يتقاتلان، فيحدث ما لا يحمد عقباه، والإسلام يريد أن تكون الأجواء داخل المجتمع نقية طاهرة تساعد على الإخاء والمحبة والتواد، لذا نهى الله عن هذا الخلق السيئ، بأسلوب بليغ، حيث نهى عن لمز النفس، والمراد النهي عن لمز الغير، فنزل المؤمنين جميعا منزلة النفس الواحدة، فمن لمز أخاه فكأنما يلمز نفسه، قال الإمام الطبري: (قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فَجَعَلَ اللامِزَ أَخَاهُ لامِزًا نَفْسَهُ، لأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ فِيمَا يَلْزَمُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ مِنْ تَحْسِينِ أَمْرِهِ، وَطَلَبِ صَلاحِهِ، وَمَحَبَّتِهِ الْخَيْرَ، وَلِذَلِكَ رُوِيَ الْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ

---

١) ينظر: "مقاييس اللغة" لأبي الحسين أحمد بن فارس، ت: ٣٩٥هـ، كتاب اللام، باب اللام والميم وما يثلثهما، (لمز)، ٢٠٩/٥، ط/ دار الفكر، تحقيق: عبد السلام هارون. "مختار الصحاح" لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، ت: ٦٠٦هـ، باب اللام، (ل م ز)، ص٢٨٤، ط/ المكتبة العصرية. "معجم اللغة العربية المعاصرة" لأحمد مختار عمر، ل- ٤٦١٦ ل م ز- ٢٠٣٥/٣.

٢) ينظر: "الكشف والبيان عن تفسير القرآن" لأبي إسحاق أحمد بن محمد الثعلبي، ت: ٤٢٧هـ، ٨١/٩، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور. "معالم التنزيل في تفسير القرآن" لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت: ٥١٠هـ، ٢٦١/٤، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي. "لباب التأويل في معاني التنزيل" لأبي الحسن علي بن محمد الخازن، ت: ٧٤١هـ، ١٨١/٤، ط/ دار الكتب العلمية.

قَالَ: "الْمُؤْمِنُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ فَإِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ").[١]

وقال الإمام القرطبي: (هَذِهِ الآيَةُ مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ﴾[٢]، أَيْ: لا يَقْتُلُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، لأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، فَكَأَنَّهُ بِقَتْلِ أَخِيهِ قَاتَلَ نَفْسَهُ، وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾[٣]، يَعْنِي يُسَلِّمُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَالْمَعْنَى: لا يَعِبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا).[٤]

📖 واستشعار هذا المعنى كفيل بأن يسود الأمن والأمان والمودة والرحمة بين المؤمنين، فما أجمل أن يستشعر العبد قبل أي تَصَرُّف مع أخيه أنه يتصرف هذا التصرف مع نفسه، فإن رضي به أتمه، وإلا فلا، وهذا الشعور يبني مجتمعا فاضلا متماسكا، يشعر فيه العبد أن كرامة أخيه هي كرامته، وأن عرض أخيه هو عرضه، فلمز أي فرد في المجتمع المسلم هو لمز لذات النفس، لأن الجماعة كلها واحدة ، كرامتها واحدة.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: (ومن الآفات التي تهدد كيان المجتمع، وتقوض بنيانه، شيوع الاستخفاف بأنفسهم، وعدم التحرج من ذكر بعضهم بعضا بالمقابح والمساوئ، فهذا إنما يكون من إفرازات الجماعات المتحلّلة من القيم الخلقية، التي تتبادل المنكرات كما تتبادل السلع الرخيصة في البيع والشراء، ذلك أن الذي يعيب الناس، ويرميهم بما يسوء من الألقاب، لا يسوؤه كثيرا أن يعيبه الناس، وأن يرجموه بكل سوء، وهذا- والله أعلم- هو ما قصد

---

١) "تفسير الطبري" لابن جرير الطبري، ٣٦٦/٢١. وسبق تخريج الحديث ص١٦.

٢) سورة النساء: جزء من الآية ٢٩.

٣) سورة النور: جزء من الآية ٦١.

٤) "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، ٣٢٧/١٦.

إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ بإيقاع الفعل عليهم، فكأنهم إذ يلمزون غيرهم يلمزون أنفسهم ضمنا).[١]

لذا أنكر النبي ﷺ على أبي ذر ﷺ لما عَيَّر رجلا بأمه –وكانت أمه أعجمية– فقال النبي ﷺ لأبي ذر ﷺ: "يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ"[٢]، وبين النبي ﷺ أن هذه الخصلة من خصال أهل الجاهلية، ولا ينبغي أن يتصف بها المجتمع المسلم، ومعلوم ما كان بين أهل الجاهلية من تفاخر وتناحر وتقاتل، والنبي ﷺ يريد أن يطهر المجتمع المسلم من ذلك، حتى يسود بين أفراده الحب والرحمة فيعيشون في سلام وتعاون.

📖 ثم نهى الله عز وجل عن التنابز بالألقاب، والنَّبَزُ، بِالتَّحْرِيكِ: اللَّقَبُ، وَالْجَمْعُ الأَنْبَازُ، يقال: نَبَزَهُ يَنْبِزُه نَبْزاً أَي: لَقَّبَه، وَفُلانٌ يُنَبِّزُ بالصِّبْيان أَي يُلَقِّبُهم، شدِّد لِلْكَثْرَةِ، وتَنابَزُوا بالأَلقاب أَي: لَقَّبَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، والتَّنابُزُ: التَّدَاعِي بالأَلقاب، وَهُوَ يَكْثُرُ فِيمَا كَانَ ذَمًّا.[٣]

---

١) "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ٤٤٩/١٣.

٢) "صحيح البخاري" كتاب الإيمان– بَاب المَعَاصِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، وَلاَ يُكَفَّرُ صَاحِبُهَا بِارْتِكَابِهَا إِلا بِالشِّرْكِ– ١٥/١، حديث رقم ٣٠. "صحيح مسلم" كتاب الأيمان– بَابُ إِطْعَامِ الْمَمْلُوكِ مِمَّا يَأْكُلُ، وَإِلْبَاسُهُ مِمَّا يَلْبَسُ، ولا يُكَلِّفُهُ مَا يَغْلِبُهُ– ١٢٨٢/٣، حديث رقم ١٦٦١.

٣) ينظر: "الصحاح" للجوهري، باب الزاي– فصل النون– مادة (نبز)، ٨٩٧/٣. "لسان العرب" لابن منظور، حرف الزاي، فصل النون، مادة (نبز)، ٤١٣/٥.

واللَّقَب: اسم يسمّى به الإنسان سوى اسمه الأول، وهو ضربان: ضرب على سبيل التشريف، كَأَلْقَابِ السّلاطين، وضرب على سبيل النّبز، وإيّاه قصد بقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: يعاير بعضُكم بعضًا بلقبه.(١)

قال الإمام الطبري: (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ نَهَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَتَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ، وَالتَّنَابُزُ بِالأَلْقَابِ: هُوَ دُعَاءُ الْمَرْءِ صَاحِبَهُ بِمَا يَكْرَهُهُ مِنَ اسْمٍ أَوْ صِفَةٍ، وَعَمَّ اللَّهُ بِنَهْيِهِ ذَلِكَ، وَلَمْ يُخَصِّصْ بِهِ بَعْضَ الأَلْقَابِ دُونَ بَعْضٍ، فَغَيْرُ جَائِزٍ لأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَنْبُزَ أَخَاهُ بِاسْمٍ يَكْرَهُهُ أَوْ صِفَةٍ يَكْرَهُهَا).(٢)

📖 والمتأمل في سبب نزول الآية المذكور آنفا(٣) يتضح له بجلاء أنه لا يجوز لأحد أن ينادي على أخيه باسم يغضب منه أو صفة يبغضها، بل الواجب على كل مسلم أن ينادي على أخيه بأحب الأسماء إليه، لما في ذلك من حفظ لمشاعر وأحاسيس أفراد المجتمع المسلم، فلا تثار في قلوبهم البغضاء ولا الكراهية، لأنه سمع من أخيه ما يكره، وربما يحس في هذا اللقب سخريةً وعيبا، فيفتش عن لقب فيمن نبزه لِيَنْبِزَهُ به، فينتشر في المجتمع آنذاك العداوة والكراهية والشحناء بين أفراده، لذا نهى الله عباده المؤمنين عن ذلك، بل لقد غير النبي ﷺ أسماء وألقابا كانت في الجاهلية معروفة لأصحابها، لأن فيها ما يزري بأصحابها، أو يصفهم بصفة مذمومة، أو ما يخالف الكتاب والسنة، ومثال ذلك ما أخرجه الإمام مسلم قائلا: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَزُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، وَعُبَيْدُ اللهِ بْنُ سَعِيدٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ

---

١) ينظر: "المفردات في غريب القرآن" لأبي القاسم الحسين بن محمد الأصفهاني، ت: ٥٠٢هـ، كتاب اللام- لقب- ص٧٤٤، ط/ دار القلم، تحقيق: صفوان عدنان. "معجم اللغة العربية المعاصرة" لأحمد مختار عمر، ل- ٤٥٩٤ ل ق ب- ٢٠٢٦/٣.

٢) "تفسير الطبري" لابن جرير الطبري، ٣٧١/٢١.

٣) ينظر ص ١٧ من البحث.

بَشَّارٍ، قَالُوا: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ عُبَيْدِ اللهِ، أَخْبَرَنِي نَافِعٌ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَيَّرَ اسْمَ عَاصِيَةَ وَقَالَ: "أَنْتِ جَمِيلَةُ".(١)

وقال الإمام البخاري: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا هِشَامٌ، أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ، أَخْبَرَهُمْ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ الحَمِيدِ بْنُ جُبَيْرِ بْنِ شَيْبَةَ، قَالَ: جَلَسْتُ إِلَى سَعِيدِ بْنِ المُسَيِّبِ، فَحَدَّثَنِي: أَنَّ جَدَّهُ حَزْنًا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: "مَا اسْمُكَ" قَالَ: اسْمِي حَزْنٌ، قَالَ: "بَلْ أَنْتَ سَهْلٌ"، قَالَ: مَا أَنَا بِمُغَيِّرٍ اسْمًا سَمَّانِيهِ أَبِي، قَالَ ابْنُ المُسَيِّبِ: فَمَا زَالَتْ فِينَا الحُزُونَةُ بَعْدُ. (٢)

📖 ولزيادة تنفير المؤمنين من السخرية واللمز والتنابز، ختم الله الآية بأسلوب بليغ يثير في النفوس المؤمنة والقلوب الصادقة الانتهاء عما نهى عنه ربهم وخالقهم، لما في ذلك من إقامة مجتمع مسلم كالجسد الواحد، والبنيان الشامخ، عف اللسان، نظيف القلب، نقي السريرة، فقال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ ، قال الإمام الرازي: (هَذَا تَمَامٌ للزجر، كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مَنْ قَوْمٍ، ولا تَلْمِزُوا، ولا تنابزوا، فإنه إن فعل يفسق بعد ما آمَنَ، وَالْمُؤْمِنُ يَقْبُحُ مِنْهُ أَنْ يَأْتِيَ بَعْدَ إِيمَانِهِ بِفُسُوقٍ، ويصير التقدير: بِئْسَ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإيمَانِ، وَبِئْسَ أَن تسموا بالفاسق بسبب هذه الأفعال بعد ما سميتم مُؤْمِنِينَ).(٣)

ومع هذا الزجر فتح الله باب التوبة وحث عليها للمسارعة إلى الاستغفار وطلب العفو ممن أخطأ المسلم في حقهم، -خاصة بعد تهديد من لم يتب بوسمه

---

١) "صحيح مسلم" كتاب الآداب- بَابُ اسْتِحْبَابِ تَغْيِيرِ الاسْمِ الْقَبِيحِ إِلَى حَسَنٍ، وَتَغْيِيرِ اسْمِ بَرَّةَ إِلَى زَيْنَبَ وَجُوَيْرِيَةَ وَنَحْوِهِمَا- ٣/١٦٨٦، حديث رقم ٢١٣٩.

٢) "صحيح البخاري" كتاب الإيمان- بَابُ تَحْوِيلِ الاسْمِ إِلَى اسْمٍ أَحْسَنَ مِنْهُ- ٨/٤٣، حديث رقم ٦١٩٣.

٣) "مفاتيح الغيب" للرازي، ٢٨/١٠٩. بتصرف

بالظلم- فقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ ، وفي التوبة وطلب العفو ممن أسيء إليهم لَمٌّ للشمل، وجبر للخواطر، وتطهير للقلوب التي انكسرت بالسخرية وغيرها، مما يوطد دعائم المجتمع.

📖 ثم نهى الله عز وجل عن الظن السيئ، والظن: في اللغة يَدُلُّ عَلَى مَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ: يَقِينٍ وَشَكٍّ، فَأَمَّا الْيَقِينُ فَقَوْلُ الْقَائِلِ: ظَنَنْتُ ظَنًّا، أَيْ: أَيْقَنْتُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ [١]، وَالمعنى الآخَرُ: الشَّكُّ، يُقَالُ: ظَنَنْتُ الشَّيْءَ، إِذَا لَمْ تَتَيَقَّنْهُ، وَمِنْ ذَلِكَ: الظِّنَّةُ: التُّهْمَةَ، وَالظَّنِينُ: الْمُتَّهَمُ، وَالظُّنُونُ: السَّيِّئُ الظَّنِّ، وَالتَّظَنِّي: إِعْمَالُ الظَّنِّ، وظَنَنْتُه ظَنّاً وأَظْنَنْتُه واظْطَنَنْتُه: اتَّهَمْتُه.[٢]

والظن السيئ: هو التُّهْمَةُ وَالتَّخَوُّنُ لِلأَهْلِ وَالأَقَارِبِ وَالنَّاسِ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، بدون دليل ولا برهان، فالواجب على المؤمن ألا يعمل بهذا الظن ولا يتكلم بحسبه، لما فيه من التقاطع والتدابر. [٣]

📖 ففي هذا النهي تطهير للنفوس من الشكوك والأوهام والوساوس والتخمينات التي تدور في داخلها لإخوانهم، لا سيما بأهل الصلاح، ومن

---

١) سورة البقرة: جزء من الآية ٤٦.

٢) ينظر: "مقاييس اللغة" لابن فارس، كتاب الظاء، بَابُ الظَّاءِ وَمَا مَعَهَا فِي الْمُضَاعَفِ وَالْمُطَابِقِ، (ظَنَّ)، ٤٢٦/٣، ٤٢٧. "لسان العرب" لابن منظور، حرف النون، فصل الظاء، مادة (ظنن)، ٢٧٢/١٣، ٢٧٣.

٣) ينظر: "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، ت: ٥٤٢هـ، ١٥٠/٥، ١٥١، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: عبد السلام محمد. "تفسير القرآن العظيم" لأبي الفداء، إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: ٧٧٤هـ، ٣٧٧/٧، ط/ دار طيبة، تحقيق: سامي سلامة. "التفسير الوسيط" لمحمد سيد طنطاوي، ٣١٤/١٣.

ظاهرهم العدالة، فإن هذه الظنون تدفع أصحابها إذا عملوا بموجبها إلى اتباع عورات المظنون به، حتى يتحقق الظان من ظنه، بل ربما يتصرف تجاه المظنون به تصرفا يُؤذيه، مما يوقع العداوة والبغضاء والشحناء في المجتمع، وكل ذلك مبني على ظنون وأوهام، وإن الظن لا يغني من الحق شيئا، وفي هذا النهي أيضا حفظ لحقوق وحريات أفراد المجتمع فلا يؤخذ أحد منهم بظن، ولا يحكم عليه بريبة وشك، ولا يخفى ما يسببه الظن السيء –إن تكلم به أو عمل بموجبه– من انفكاك في المجتمع، وتقطع للأرحام، والأسر، لا سيما إذا دخل بين الأخ وأخيه، والزوج وزوجه.

قال الشيخ أحمد المراغي: (أَدَّب الله عباده المؤمنين بآداب إن تمسكوا بها دامت المودة والوئام بينهم منها: ما تقدم قبل هذا، ومنها: ما ذكره هنا من الأمور العظام التي تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامي قوة، وهى: البعد عن سوء الظن بالناس وتخوّنهم في كل ما يقولون وما يفعلون، لأن بعض ذلك قد يكون إثما محضا فليجتنب كثير منه).[١]

وقال الإمام الطاهر بن عاشور: (فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ تَأْدِيبٌ عَظِيمٌ يُبْطِلُ مَا كَانَ فَاشِيًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنَ الظُّنُونِ السَّيِّئَةِ، وَالتُّهَمِ الْبَاطِلَةِ، وَأَنَّ الظُّنُونَ السَّيِّئَةَ تَنْشَأُ عَنْهَا الْغَيْرَةُ الْمُفْرِطَةُ، وَالْمَكَائِدُ، وَالاغْتِيَالاتُ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، وَالْمُبَادَأَةُ بِالْقِتَالِ حَذَرًا مِنِ اعْتِدَاءٍ مَظْنُونٍ ظَنًّا بَاطِلا، كَمَا قَالُوا: خُذِ اللِّصَّ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَكَ).[٢]

فالإسلام يطهر ضمائر أتباعه، ويدع قلوبهم نقية من الظنون والشكوك، وهذا النص الكريم يقيم سياجاً حول حقوق الناس الذين يعيشون في المجتمع المسلم، فلا يؤخذ أحد منهم بظن سيئ، ولا يحاكم بريبة، ومعنى هذا أن يظل

---

١) "تفسير المراغي" للمراغي، ١٣٦/٢٦.

٢) "التحرير والتنوير" لابن عاشور، ٢٥١/٢٦.

الناس أبرياء، مصونة حقوقهم، وحرياتهم، حتى يتبين أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه، فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحقوقهم ينتهي إليه هذا النص الكريم؟.

وقد حذر النبي ﷺ من الظن السيئ قائلا: "إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الحَدِيثِ، وَلاَ تَحَسَّسُوا، وَلاَ تَجَسَّسُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا".(١)

ثم نهى الله عز وجل عن التجسس، وهو: التَّفْتيش عَنْ بوَاطِن الأمُورِ، وأكْثَر مَا يُقال فِي الشَّرّ، يقال: جَسَّ الخَبَرَ وتَجَسَّسه: بَحَثَ عَنْهُ، وفحَصَ.(٢) والمعنى: لا تتبعوا عورات المسلمين، ولا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطلع عليه، بل خذوا ما ظهر، ودعوا ما ستر الله.(٣)

إن التجسس خصلة مذمومة وخلق دنيء لما فيه من الاطلاع على عورات الناس والتفتيش عن أسرارهم، مع أن لكل فرد في المجتمع حرمته وحريته وكرامته التي لا يجوز لأحد أن يخدشها، فهذا المتجسس الذي يتتبع عورات الناس قد يطلع على ما يكره فتنشأ في قلبه البغضاء والكراهية، وقد يعلم المتجَسَّس عليه بهذا التجسس فتنشب العداوة والبغضاء في قلبه، وفي هذا تقطيع لأواصر الأخوة والمحبة في المجتمع، بل إن التجسس إذا انتشر في

---

١) "صحيح البخاري" كتاب الأدب- بَابُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ - ١٩/٨، حديث رقم ٦٠٦٦. "صحيح مسلم" كتاب البر والصلة والآداب- بَابُ تَحْرِيمِ الظَّنِّ، وَالتَّجَسُّسِ، وَالتَّنَافُسِ، وَالتَّنَاجُشِ وَنَحْوِهَا- ١٥٨٩/٤، حديث رقم ٢٥٦٣.

٢) "النهاية" لابن الأثير، حرف الجيم- باب الجيم مع الشين- جسس- ٢٧٢/١. "لسان العرب" لابن منظور، حرف السين، فصل الجيم، مادة (جسس)، ٣٨/٦.

٣) ينظر: "الكشف والبيان" للثعلبي، ٨٢/٩. "الهداية إلى بلوغ النهاية" لأبي محمد مكي بن أبي طالب المالكي، ت: ٤٣٧هـ، ٧٠٠٦/١١، ط/ جامعة الشارقة. "معالم التنزيل" للبغوي، ٢٦٢/٤. "الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، ٣٣٣/١٦.

بيئة فإنه يؤدي إلى فساد الحياة فيها، لأن كل شخص فيها لن يأمن على أسراره ولا على خصوصياته، فيعيش في شك لا ينتهي، وهذا فساد عريض، وهذا مصداق قول النبي ﷺ لمعاوية ﷺ: "إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوْرَاتِ النَّاسِ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كِدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ"، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: "كَلِمَةٌ سَمِعَهَا مُعَاوِيَةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا".(١)

قال الإمام الطاهر بن عاشور: وَالتَّجَسُّسُ ضَرْبٌ مِنَ الْكَيْدِ وَالتَّطَلُّعِ عَلَى الْعَوْرَاتِ، وَقَدْ يَرَى الْمُتَجَسِّسُ مِنَ الْمُتَجَسَّسِ عَلَيْهِ مَا يَسُوءُهُ فَتَنْشَأُ عَنْهُ الْعَدَاوَةُ وَالْحِقْدُ، وَيَدْخُلُ صَدْرَهُ الْحَرَجُ وَالتَّخَوُّفُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ضَمَائِرُهُ خَالِصَةً طَيِّبَةً وَذَلِكَ مِنْ نَكَدِ الْعَيْشِ، وَذَلِكَ ثَلْمٌ للأُخُوَّةِ الإِسْلامِيَّةِ لأَنَّهُ يَبْعَثُ عَلَى إِظْهَارِ التَّنَكُّرِ، ثُمَّ إِنِ اطَّلَعَ الْمُتَجَسَّسُ عَلَيْهِ عَلَى تَجَسُّسِ الآخَرِ سَاءَهُ فَنَشَأَ فِي نَفْسِهِ كُرْهٌ لَهُ، وَانْثَلَمَتِ الأُخُوَّةُ ثُلْمَةٌ أُخْرَى كَمَا وَصَفْنَا فِي حَالِ الْمُتَجَسِّسِ، ثُمَّ يَبْعَثُ ذَلِكَ عَلَى انْتِقَامِ كِلَيْهِمَا مِنْ أَخِيهِ.(٢)

فالقرآن يقاوم هذا الخلق الدنيء، ليطهر القلوب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم، بل إن النص الكريم يضع مبدأ من مبادئ الإسلام الرئيسة في المجتمع المسلم، وهو أن الناس يعيشون فيه آمنين على أنفسهم، وبيوتهم، وأسرارهم، وعوراتهم، فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتجسس على بواطنهم.

---

١) أخرجه الإمام أبو داود في "سننه" كتاب الأدب- باب في النهي عن التجسُّسِ- ٢٥٠/٧، حديث رقم ٤٨٨٨. والإمام أبو يعلى في "مسنده" حَدِيثُ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ ﷺ- ٣٨٢/١٣، حديث رقم ٧٣٨٩. والإمام ابن حبان في "صحيحه" كتاب الحظر والإباحة- بَابُ الغِيبَةِ- ذِكْرُ الإِخْبَارِ عَنْ نَفْيِ جَوَازِ ذِكْرِ تَتَبُّعِ الْمَرْءِ عُيُوبَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ- ٧٢/١٣، ٧٣، حديث رقم ٥٧٦٠. والحديث إسناده صحيح.

٢) "التحرير والتنوير" لابن عاشور، ٢٥٣/٢٦، ٢٥٤. بتصرف يسير

📖 والتجسس سواء أكان أثرا من آثار الظن السيئ أم كان ابتداء من المتجسس لكشف عورات الناس، فهو خصلة خسيسة وخلق سيء حذرنا الله منه لنعيش في مجتمع يأمن الناس فيه على عوراتهم وسوءاتهم، فلا يعيشون في قلق واضطراب وتخوف من اطلاع أحد على أسرارهم، ولقد حذر النبي ﷺ أشد التحذير من اتباع عورات المسلمين حيث صعد المنبر فنادى بصوت رفيع فقال: "يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ، لاَ تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ"[1].

---

١) أخرجه الإمام الترمذي في "سننه" أَبْوَابُ البِرِّ وَالصِّلَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- بَابُ مَا جَاءَ فِي تَعْظِيمِ المُؤْمِنِ- ٣٧٨/٤، حديث رقم ٢٠٣٢. والإمام أبو يعلى في "مسنده" مُسْنَدُ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ- ٢٣٧/٣، حديث رقم ١٦٧٥. والإمام الرُّوياني في "مسنده" ٢١٩/١، حديث رقم ٣٠٥. والإمام أبو بكر الخرائطي في "مساوئ الأخلاق ومذمومها" بَابُ مَا جَاءَ فِي الْغِيبَةِ مِنَ الْكَرَاهَةِ- ص٩٩، حديث رقم ١٩٠، ط/ مكتبة السوادي، تحقيق: مصطفى الشلبي. والإمام ابن حبان في "صحيحه" كتاب الحظر والإباحة- بَابُ الغِيبَة- ذِكْرُ الزَّجْرِ عَنْ طَلَبِ عَثَرَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَتَعْيِيرِهِمْ – ٧٥/١٣، حديث رقم ٥٧٦٣. والإمام أبو الشيخ الأصبهاني في "التوبيخ والتنبيه" بَابُ مَا أَمَرَ بِهِ ﷺ الْمُسْلِمَ مِنْ تَرْكِ غِيبَةِ أَخِيهِ، وَاتِّبَاعِ عَوْرَتِهِ، وَمَا أَوْعَدَ فِي ذَلِكَ- ص٤٩، حديث رقم ٩٣، ط/ مكتبة الفرقان، تحقيق: مجدي إبراهيم. والإمام البيهقي في "شعب الإيمان" التَّاسِعُ وَالسِّتُّونَ مِنْ شُعَبِ الإِيمَانِ وَهُوَ بَابٌ فِي السَّتْرِ عَلَى أَصْحَابِ الْقُرُوفِ- ١٦٠/١٢، حديث رقم ٩٢١٣، ط/ مكتبة الرشد، تحقيق: عبد العلي حامد. والإمام البغوي في "شرح السنة" كتاب البر والصلة- بَاب النَّهْي عَن تتبع عورات الْمُسلمين- ١٠٤/١٣، حديث رقم ٣٥٢٦، ط/ المكتب الإسلامي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط. والحديث إسناده صحيح.

📖 ثم نهى الله عز وجل عن الغِيبَة، وهي من الاغتياب، يقال: اغتابَ يغتاب، اغْتَبْ، اغتيابًا، أي: ذكر عيوبَه في غيابه، وذمّه في غيابه[١]، وقد عرفها النبي ﷺ حينما سأل الصحابةَ قائلا: "أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟"، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: "ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ" قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: "إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ"[٢].

📖 الغِيبَة مرض خطير له أثر كبير على استقرار واطمئنان المجتمع لما فيه من نشر عيوب الآخرين وكشف سوءاتهم، وهي دلالة كبرى على ما في قلب المغتاب من حقد وكراهية وبغضاء على من يقع في عرضه ويأكل لحمه، ثم إن الغيبة إذا وصلت للشخص الذي نُشر عيبه فإنه قد يقع في عرض من اغتابه ردا لانتهاك عرضه، بل ربما يدفعه ذلك إلى التشاجر معه والتقاتل، ولا يخفى ما في ذلك من قطع لأواصر الأخوة الإيمانية، وإفساد للمودة والمحبة بين أفراد المجتمع، وملئ القلوب بالضغائن والعداوات، من أجل هذا اهتم النبي في حجة الوداع بحرمة الأعراض وهو يضع القوانين والأسس للمحافظة على المجتمع المسلم الفاضل متماسكا، خاليا من البغضاء والكراهية، حيث قال: "فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ، فَإِنَّ الشَّاهِدَ عَسَى أَنْ يُبَلِّغَ مَنْ هُوَ أَوْعَى لَهُ مِنْهُ".[٣]

---

١) ينظر: "لسان العرب" لابن منظور، حرف الباء، فصل الغين، مادة (غيب)، ٦٥٦/١. "معجم اللغة العربية المعاصرة" لأحمد مختار عمر، غ- ٣٦٣٣ غ ي ب- ١٦٥٣/٢.

٢) "صحيح مسلم" كتاب البر والصلة والآداب- بَابُ تَحْرِيمِ الْغِيبَةِ- ٢٠٠١/٤، حديث رقم ٢٥٨٩.

٣) "صحيح البخاري" كتاب العلم- بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: "رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ"- ٢٤/١، حديث رقم ٦٧. "صحيح مسلم" كِتَابُ الْقَسَامَةِ وَالْمُحَارِبِينَ وَالْقِصَاصِ وَالدِّيَاتِ- بَابُ تَغْلِيظِ تَحْرِيمِ الدِّمَاءِ وَالأَعْرَاضِ وَالأَمْوَالِ- ١٣٠٥/٣، حديث رقم ١٦٧٩.

قال الإمام الطاهر بن عاشور: (وَالْغِيبَةُ حَرَامٌ بِدَلالَةِ هَذِهِ الآيَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى مَفْسَدَةِ ضَعْفٍ فِي أُخُوَّةِ الإِسْلامِ، وَقَدْ تَبْلُغُ الَّذِي اغْتِيبَ فَتَقْدَحُ فِي نَفْسِهِ عَدَاوَةً لِمَنِ اغْتَابَهُ فَيَنْثَلِمُ بِنَاءُ الأُخُوَّةِ، وَلأَنَّ فِيهَا الاشْتِغَالَ بِأَحْوَالِ النَّاسِ، وَذَلِكَ يُلْهِي الإِنْسَانَ عَنِ الاشْتِغَالِ بِالْمُهِمِّ النَّافِعِ لَهُ وَتَرْكِ مَا لا يَعْنِيهِ).[١]

ثم إن النهي عن الغيبة في الآية جاء بأسلوب بليغ ينفر من يسمع الآية من هذه الخصلة المذمومة، قال الإمام أبو السعود: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيلٌ وتصويرٌ لما يصدرُ عنِ المغتابِ منْ حيثُ صدورُهُ عنْهُ ومنْ حيثُ تعلقُه بصاحبِه عَلى أفحشِ وجهٍ وأشنعِه طبعاً وعقلاً وشرعاً، معَ مبالغاتٍ من فُنونٍ شَتَّى: الاستفهامُ التقريري، وإسنادُ الفعلِ إلى أحدٍ إيذاناً بأنَّ أحداً من الأحدينَ لا يفعلُ ذلكَ، وتعليقُ المحبةِ بَما هُوَ في غايةِ الكراهةِ، وتمثيلُ الاغتيابِ بأكلِ لحمِ الإنسانِ وجعلُ المأكولِ أخاً للآكلِ وميتاً).[٢]

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: (تشنيع على الغيبة، وازدراء وتنديد بأهلها، إنهم أسوأ من أخس الحيوانات موقفا، وأنزلهم منزلة، إنهم يأكلون لحم إخوانهم، والحيوانات تعاف أن يأكل الجنس لحم جنسه، وليس هذا وحسب، بل إنهم ليأكلون هذا اللحم ميتا، متعفنا، وكثير من الحيوانات- كالأسود مثلا- تعاف أكل الميتة، ولو ماتت جوعا، فهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى للمغتاب، فإنه إذ يغتاب شخصا ما، فإنما ينهش عرضه، وهو غائب دون أن يملك صاحبه أن يدفع هذه السهام التي تفرى جلده، وتنفذ إلى عظمه، تماما كشأنه لو كان ميتا، ثم جاء هذا المغتاب إلى جسده، وأعمل فيه أسنانه، وأكله كما تأكل الذئاب جريحها، إنه لا يملك من أمره شيئا). [٣]

---

١) "التحرير والتنوير" لابن عاشور، ٢٥٦/٢٦. بتصرف يسير

٢) "إرشاد العقل السليم" لأبي السعود، ١٢٢/٨.

٣) "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ٤٥١/١٣.

كل هذا حفاظا على المجتمع المسلم من انتهاك حرمة وكرامة أفراده، ومن تقطع أواصر المحبة والرحمة بينهم، فلكل فرد من أفراد المجتمع المسلم عرض مصان، وعورة محفوظة، قال الإمام محمد سيد طنطاوي: (والحق أن المتأمل في هذه الآية الكريمة يراها قد نفرت من الغيبة بأبلغ أسلوب وأحكمه، لأنها من الكبائر والقبائح التي تؤدى إلى تمزق شمل المسلمين، وإيقاد نار الكراهية في الصدور).[١]

ثم ختم الله الآية بفتح باب التوبة تطهيرا للقلوب وردا للمظالم، حتى تتقوى رابطة الأخوة ويزداد الحب والتراحم، ويقوى المجتمع ويستقر.

وبذلك نرى هاتين الآيتين قد رسمتا للمجتمع المسلم سبيل تقوية أواصر الأخوة والمحبة بين أفراده، ونجاتهم من الغل والكراهية والبغضاء، وهذا عامل كبير في استقراره وتماسكه.

---

١) "التفسير الوسيط" لمحمد سيد طنطاوي، ٣١٧/١٣.

المبحث الخامس: التعارف والتآلف بين الناس

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ (١).

الأثر العملي للآية في استقرار المجتمع

إن الإسلام الحنيف ينظر إلى المجتمع البشري باعتباره وحدة واحدة، فالناس جميعا أصلهم واحد، لا فضل لجنس على جنس، ولا لشعب على شعب، في أصل الخلقة والنشأة بل عَمَّ التكريم الإلهي جميع بني آدم، وبين الإسلام أن الحكمة من اختلاف الشعوب والأجناس هي التعارف والتآلف لا التنافر والتناحر، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ ، فاختلاف الألسنة والألوان والأوطان تنوع لا يقتضي النزاع بل يقتضي التعارف والتآلف، وبالتعارف والتآلف يحصل التماسك والترابط، ولا شك أن استحضار هذا المعنى كفيل بالقضاء على النزعات المادية التعصبية التي تؤدي إلى التنازع والتقاتل بين أفراد المجتمع.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: (يخبر تعالى أنه خلق بني آدم، من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله تعالى بث منهما رجالا كثيرا ونساء، وفرقهم، وجعلهم شعوبًا وقبائل، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون، والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوبًا وقبائل لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها، مما

---

١) سورة الحجرات: ١٣.

يتوقف على التعارف، ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم).[١]

📖 والمتأمل في هذه الآية التي جاءت خطابا للناس جميعا والآيات قبلها التي جاءت خطابا للمؤمنين يلحظ أن المؤمنين ينبغي عليهم أن يتخلقوا بهذه الآداب السابقة مع الناس جميعا، فهي أخلاق إنسانية، يجب أن يتحلى بها المؤمن مع الناس جميعا، قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: (قوله تعالى:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ هو تعقيب عام على تلك الآداب التي كانت خطابا للذين آمنوا، ليرتلوها ويأخذوا أنفسهم بها، وليس هذا فحسب، بل إن عليهم أن يراعوا هذه الأحكام وتلك الآداب مع غير المؤمنين، مع الناس جميعا من كل أمة، ومن كل دين، إنها أخلاق إنسانية، يجب أن تكون طبعا وجبلّة في المؤمن، يعيش بها في الحياة كلها، ومع الناس جميعا، ولهذا جاء الخطاب هنا للناس جميعا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ والمستمع لهذا الخطاب والعامل به هم المؤمنون، ثم أعقب هذا الخطاب، تقرير هذه الحقيقة التي ينبغي أن يعيها المؤمنون: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ﴾ ، فأنتم أيها الناس- مؤمنين وغير مؤمنين- إخوة في الإنسانية، إذ كنتم من طينة واحدة، كلكم لآدم وآدم من تراب، وأنه إذا كان للمؤمنين منزلة عند الله، وفضل على غير المؤمنين، فذلك رزق من رزق الله، وإن من الخير للمؤمنين أن ينفقوا من هذا الخير على الإنسانية كلها، وأن يكونوا الوجه الكريم الطيب الرحيم فيها).[٢]

---

١) "تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي، ص٨٠٢. بتصرف

٢) "التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ٤٥٢/١٣. بتصرف

📖 ثم إن الميزان الذي وضعه الله للبشرية كلها هو ميزان التقوى، لا التفاخر والتعاظم بالأنساب والأحساب والجنس والقبيلة، فالناس عند الله سواء لا فضل لأبيض على أحمر إلا بالتقوى والعمل الصالح، فالكريم حقاً هو الكريم عند الله، وبهذا يكون الإسلام قد وضع الميزان الذي تسقط تحته جميع الفوارق، وتتوارى أمامه جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض، وتضمحل في ظله جميع الأمور التي يتسارع عليها الناس، ويظهر سبب واضح للألفة والتعاون ألا وهو ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما ترتفع راية واحدة يتسابق الجميع ليقفوا تحتها، ألا وهي راية التقوى، فلا راية للوطنية، ولا راية للقومية، ولا راية للجنس، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام، ولا يخفى ما في التفاخر والتعاظم بمثل هذه الرايات من غرس الحقد والبغضاء والكراهية في المجتمع، لذا خطب النبي ﷺ الناس يوم فتح مكة قائلا: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلاَنِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ، قَالَ اللَّهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ "[1].

---

١) أخرجه الإمام الترمذي في "سننه" أَبْوَابُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ- بَاب وَمِنْ سُورَةِ الحُجُرَاتِ- ٣٨٩/٥، حديث رقم ٣٢٧٠. والإمام ابن أبي شيبة في "مصنفه" كتاب المغازي- حَدِيثُ فَتْحِ مَكَّةَ- ٤٠٥/٧، حديث رقم ٣٦٩١٩. والإمام ابن حبان في "صحيحه" كتاب الحج- باب دخول مكة- ذِكْرُ جَوَازِ طَوَافِ الْمَرْءِ عَلَى رَاحِلَتِهِ- ١٣٧/٩، حديث رقم ٣٨٢٨. والحديث إسناده صحيح.

تتمة: خاتمة السورة

ختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الإيمان، وأنه تصديق جازم بالقلب بلا أدنى ريب، وردَّت على الأعراب قولهم بلسانهم آمنا، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم، وفي هذا الختام أيضا حث على امتثال أسمى وأرفع أدب وهو الأدب مع الله عز وجل ومع رسوله ﷺ، فليس لأحد أن يمُنَّ على الله وعلى رسوله بإسلامه، بل المنة والفضل كله لله، وليس لأحد أن يُعْلِمَ الله بإيمانه، فالله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ثم إن المتأمل في السورة يلحظ الارتباط الوثيق بين الأخلاق والإيمان فقد جاء النداء بلفظ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خمس مرات في ثمان عشرة آية، وفي كل نداء ينبه إلى أدب وخلق وخصلة لا يليق أن تقع من المؤمن، فقد نادى الله على المؤمنين باسم الإيمان ليصحح أخلاقا وآدابا لها أعظم الأثر في بناء واستقرار المجتمع المسلم، وجاءت الآية الأخيرة في السورة دافعة العباد إلى امتثال أمر الله عز وجل، فالإيمان بعلم الله وإحاطته، ورؤيته لعباده وما يعملون كفيل بأن يجعل المؤمن منتهيا عما نهاه الله عنه، ومتأدبا ومتخلقا بما أدبه الله به.

الخاتمة

وفي الختام أحمد الله العلي القدير الذي منَّ عليَّ بإتمام هذا البحث، فله الحمد والثناء الجميل، وأذكر أهم نتائج البحث، وهي كما يلي:

١- سورة الحجرات تضع المعالم لبناء عالم كريم رفيع سليم الصدر نقي القلب.

٢- سورة الحجرات تتضمن القواعد والأسس التي تحافظ على الاستقرار الاجتماعي للمجتمع المسلم.

٣- سورة الحجرات تبين حقيقة الإيمان وقيمته.

٤- سورة الحجرات تبين العلاقة الوثيقة بين الإيمان والأخلاق.

٥- الأخلاق الحميدة أساس بناء المجتمعات، وانحطاط الأخلاق معول هدم المجتمعات.

٦- سورة الحجرات تبين أن الأخلاق السامية أصل من أصول الإيمان.

وأما التوصيات:

١- أوصي بتدريس السورة الكريمة لطلاب المدارس والمعاهد والجامعات لما لها من أثر عظيم في تقويم السلوك والأخلاق.

٢- أوصي وسائل الإعلام المرئية والمسموعة بالتثبت من الأخبار قبل إذاعتها، وإذاعة ما فيه مصلحة لا ما يحدث فتنة وشقاق، لما في ذلك من أثر كبير على الفرد والمجتمع، كما أوصي المستمعين لها بذلك.

٣- أوصي بإنشاء لجان من أفاضل الناس في كل قرية أو بلد للإصلاح بين المتنازعين حتى يسود الإخاء والحب في المجتمع.

فهرس أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

"الآحاد والمثاني" لأبي بكر بن أبي عاصم، ت: ٢٨٧هـ، ط/ دار الراية، الرياض، تحقيق: باسم فيصل.

"إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" لأبي السعود، ت: ٩٨٢هـ، ط/ دار إحياء التراث العربي.

"إعلام الموقعين عن رب العالمين" لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، ت: ٧٥١هـ، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم.

"التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن عاشور، ت: ١٣٩٣هـ، ط/ الدار التونسية.

"تفسير القرآن العظيم" لابن كثير، ت: ٧٧٤هـ، ط/ دار طيبة، تحقيق: سامي سلامة.

"التفسير القرآني للقرآن" لعبد الكريم الخطيب، ت: بعد ١٣٩٠هـ، ط/ دار الفكر العربي، القاهرة.

"تفسير المراغي" للمراغي، ت: ١٣٧١هـ، ط/ مكتبة مصطفى الحلبي.

"التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج" للزحيلي، ط/ دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية.

"التفسير الوسيط" للزحيلي، ط/ دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى.

"التفسير الوسيط" لمحمد سيد طنطاوي، ت: ١٤٣١هـ، ط/ دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى.

"تهذيب اللغة" لأبي منصور الأزهري ت: ٣٧٠هـ، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ت ط/ ٢٠٠١م، تحقيق: محمد عوض.

"التوقيف على مهمات التعاريف" للمناوي، ت: ١٠٣١هـ، ط/ عالم الكتب.

"تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" للسعدي، ت: ١٣٧٦هـ، مؤسسة الرسالة.

"جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للطبري، ت: ٣١٠هـ، ط/ دار هجر، تحقيق: عبد الله التركي.

"الجامع لأحكام القرآن" للقرطبي، ت: ٦٧١هـ، ط/ دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش.

"روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" للآلوسي، ت: ١٢٧٠هـ، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: علي عطية.

"زهرة التفاسير" لأبي زهرة، ت: ١٣٩٤هـ، ط/ دار الفكر العربي

"سنن الترمذي" للترمذي، ت: ٢٧٩هـ، ط/ مكتبة مصطفى الحلبي، الطبعة الثانية، تحقيق: أحمد شاكر.

"سنن أبي داود" لأبي داود السجستاني، ت: ٢٧٥هـ، ط/ دار الرسالة، الطبعة الأولى، تحقيق: شعيب الأرنؤوط.

"الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية" للجوهري، ت: ٣٩٣هـ، ط/ دار العلم للملايين، الطبعة الرابعة، تحقيق: أحمد عطار.

"صحيح البخاري" لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت: ٢٥٦هـ، ط/ طوق النجاة.

"صحيح مسلم" لأبي الحسن مسلم بن الحجاج، ت: ٢٦١هـ، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، تحقيق: محمد عبد الباقي.

"صفوة التفاسير" للصابوني، ط/ دار الصابوني، القاهرة، الطبعة الأولى.

"عمدة القاري شرح صحيح البخاري" للعيني، ت: ٨٥٥هـ، ط/ دار إحياء التراث.

"غرائب القرآن ورغائب الفرقان" للنيسابوري، ت: ٨٥٠هـ، ط/ دار الكتب

العلمية، تحقيق: زكريا عميرات.

"الفروق اللغوية" للعسكري، ت: ٣٩٥هـ، ط/مؤسسة النشر الإسلامي.

"القاموس المحيط" لمجد الدين الفيروزآبادي، ت: ٨١٧هـ، ط/ مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، تحقيق: مكتب تحقيق التراث بمؤسسة الرسالة.

"الكتاب" لسيبويه، ت: ١٨٠هـ، ط/ مكتبة الخانجي، تحقيق: عبد السلام هارون.

"الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ت: ٥٣٨هـ، ط/ مكتبة العبيكان، بالرياض، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض.

"الكشف والبيان عن تفسير القرآن" للثعلبي، ت: ٤٢٧هـ، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: أبو محمد بن عاشور.

"لباب التأويل في معاني التنزيل" للخازن، ت: ٧٤١هـ، ط/ دار الكتب العلمية.

"لسان العرب" لابن منظور، ت: ٧١١هـ، ط/ دار صادر، بيروت.

"مجمع الزوائد ومنبع الفوائد" لأبي الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي، ت: ٨٠٧هـ، ط/ مكتبة القدسي، القاهرة، تحقيق: حسام الدين القدسي.

"المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية، ت: ٥٤٢هـ، ط/ دار الكتب العلمية، تحقيق: عبد السلام محمد.

"مسند أحمد" لأحمد بن حنبل، ت: ٢٤١هـ، ط/ مؤسسة الرسالة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وآخرون.

"المعجم الكبير" لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، ت: ٣٦٠هـ، ط/ مكتبة ابن تيمية، تحقيق: حمدي عبد المجيد.

"المصباح المنير في غريب الشرح الكبير" للفيومي، ت: ٧٧٠هـ، ط/ المكتبة العلمية.

"معالم التنزيل في تفسير القرآن" للبغوي، ت: ٥١٠هـ، ط/ دار إحياء التراث العربي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

"معجم اللغة العربية المعاصرة" لأحمد مختار عمر، ت: ١٤٢٤هـ، بمساعدة فريق عمل، ط/ عالم الكتب، الطبعة الأولى.

"مفاتيح الغيب" للرازي، ت: ٦٠٦هـ، ط/ دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

"نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" للبقاعي، ت: ٨٨٥هـ، ط/ دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

"النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير، ط/ المكتبة العلمية، تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناحي.

"الهداية إلى بلوغ النهاية" لمكي بن أبي طالب، ت: ٤٣٧هـ، ط/ جامعة الشارقة.

"الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد" لأحمد بن محمد أبي نصر البخاري الكلاباذي، ت: ٣٩٨هـ، ط/ دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الله الليثي.